(السنة الرابعة عشرة)

العدد الأول — يناير - مارس ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

(١٩٣٤)

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير: محمد نجيب حنان — رئيس التحرير: محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

النقد في الأدب العربى

للأستاذ السباعى بيومى

وكيل كلية دار العلوم

٤ ـ فى العصر العباسى

انتهى بنا القول عن النقد الأدبى فى العصر الأموى إلى قولنا فى آخر ما قلنا « وبعد فلا عجب مع هذا كله أن يروج الأدب ويكثر الأدباء ويجود النقد ويجيد النقاد، وأن تخلق الرواية وينتشر الرواة فيتم بذلك وضع الأساس الفطرى السليم للنقد أمام الناقدين ، ومن ثم يسلمه هؤلاء فى أخريات العهد الأموى صالحاً للبناء على أيدى من تخطى هذا العهد من إخوانهم إلى الصدر العباسى ، ومنّ وجد من خلفائهم فى ذلك الصدر مع هؤلاء الأخوان ، ثم يطرد السمو بالنقد على توالى العهود العباسية الطوال ، حتى يغدو بناؤه صرحا ثابت الأصل فى الأرض باسق الفرع فى السماء » .

ونحن قبل البدء فى التاريخ للنقد فى العصر العباسى مضطرون أن نقسم ذلك العصر تبعا لما حدث به من أحداث جسام إلى أربعة عهود ، لما كان لتلك الأحداث من آثار بالغة فى كثير من نواحى الحياة ومنها ناحية النقد الأدبى الذى نحن بصدد الكلام فيه الآن ، عهد أول هو عهد نفوذ الخلفاء على شئون الدولة العامة وعلى من استعانوا بهم فى تصريف أمورها من رجالات الفرس ذوى البيوتات ، ويبدأ حيث بدأت الدولة سنة ١٣٢ هـ

وينتهى بقتل المتوكل على يد الخدم الأتراك سنة ٢٣٢ ﻫ ، وعهد ثان هو عهد الخدم الأتراك ويبدأ حيث انتهى العهد الأول بذلك الحدث الشنيع وينتهى بتغلب آل بويه على أولئك الخدم ودخولهم بغداد سنة ٣٣٤ ﻫ ، وعهد ثالث هو عهد آل بويه ويبدأ بدخولهم بغداد وينتهى بتغلب آل سلجوق عليهم ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧ ﻫ ، ثم عهد رابع هو عهد السلاجقة ويبدأ منذ دخولهم بغداد ولا ينتهى إلا حيث أزال التتار ، على يد هولاكو ، الخلافة العباسية من بغداد بقتلهم الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦ ﻫ .

وهكذا شاءت الأقدار أن تقسم العصر العباسى إلى تلك العهود الأربعة، وعلى حسب هذا التقسيم سيكون تأريخنا للنقد الأدبى فيه إن شاء الله .

١ - العهد الأول

من ١٣٢ — ٢٣٢ ﻫ

انتهى العصر الأموى ولم يجاوز النقد الأدبى كما رأيت آنفا الفطرة المبنية على الذوق السليم والعرف العربى العام ، ومن ثم بقى فطريا غير علمى، ولكنه بدأ فى أخريات ذلك العصر يتجه بعض الاتجاه إلى الناحية العلمية بسبب ما حدث من وضع النحو ووجود النحاة ، وما جد من رواية اللغة والأدب ووجود اللغويين الأدباء .

فأما من حيث وضع النحو ووجود النحاة، فإن أبا الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ وهو أحد التابعين بالبصرة وذو الشهرة الواسعة بالذكاء والبديهة والمعرفة الكبيرة بالقرآن والحديث والشعر ، لم يكد يؤصل أصول النحو ويفرع بعض فروعه ، حتى اختلف إليه عدد كبير من رجال البصرة يتعلمونه منه ويتلقونه عليه . كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هارون الأعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الأقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الأولى وإن لم يكن لهم فى التأليف سوى أوراق ، وعنهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن إسحق وأسماء الحضرمى وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبو الخطاب

عبد الحميد بن عبد المجيد المعروف بالأخفش الأكبر أستاذ سيبويه ، وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسى تبارت فى التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسى فتثقفت عليهما الطبقة التى وضعت أساس التأليف فى النحو ، وكان رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائله ومصحح قياسه ومخترع العروض، وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه وبالكوفة طبقة الكسائى . ودب بين الطبقتين الخلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقد بينهما المناظرات ، وكان المنشأ الأول للخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذى لا يأخذون به إلا لضرورة . ولعل مما ساعدهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية ، فى حين أن الكوفيين يعتمدون فى أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة ولقربها من الاعجام .

وأما من حيث رواية اللغة والأدب ووجود اللغويين الأدباء ، فان بنى أمية وعلى رأسهم فى ذلك عبد الملك بن مروان ، شجعوا على مدارسة الأدب الاسلامى ثم أحيوا العصبيات فكان فى ذلك إحياء الادب الجاهلى ، وكانوا من كبار الملمين باللغة والأدب العارفين لمحاسن الكلام ودقائقه الراغبين فى ألا تخلو مجالسهم من حوار فيه ونقاش ، فحمل ذلك كله أرباب الكلام على العناية بالقول والاحتفال بتجويده قبل إهدائه إليهم ، كما حمل رواة الأدب على أن يلموا منه بالكثير الذى يحسنون عرضه ويجيدون تقليبه ، ومن ثم وجد الرواة من اللغويين الأدباء ، كعامر الشعبى الذى أوفده الحجاج إلى عبد الملك ليكون خاصته وسميره والذى مع قوله عن نفسه « لست لشىء من العلوم أقل رواية منى للشعر » كان يقول « لو شئت لأنشدت شهرا ولا أعيد بيتاً » ، وقد توفى سنة ١٠٤ ، وكحماد الراوية الذى استحق هذا اللقب دون غيره ، وكان البحر لا ساحل له ، سأله الوليد بن يزيد وهو يكلمه فى سبب هذا اللقب عن مقدار ما يحفظ من الشعر فقال كثير ولكنى أنشد على كل

حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية والاسلام ، غير أنه لم يك فى ثقة الشعبى ، وقد أدرك الدولة العباسية إذ كانت وفاته سنة ١٥٥ ، وحماد هذا هو أول من عنى بتدوين الشعر فجمع فى أخريات حياته السبع الطوال التى عرفت بعد بالمعلقات .

ولما كان ما روى فى العصر الأموى قد بقى غير مقيد بالكتابة، وكانت مخالطة العجمة للعربية قد اشتدت منذ جاء العصر العباسى ، فقد وجدت الحاجة ماسة إلى التوسع فى قواعد النحو للتحرز من الأخطاء وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة ، ومن ثم دفع الحرص على هذين الأمرين إلى تقييد المروى بالتدوين . وقد حبب بعد مواطن العباسيين عن البوادى إلى طائفة من نصحاء الأعراب التردد على حواضر العراق ولا سيما البصرة والكوفة لدى الرواة والمتعلمين باللغة والأدب ، لقاء ما ينالون من رزق ومال ، فكان من أشهر هؤلاء بالبصرة ، أبو البيداء الرياحى وأبو مالك بن كركرة وأبو الجاموس بن يزيد وأبو عدنان بن عبد الأعلى وشبيل بن عروة ، وكان من أشهرهم بالكوفة أبو خيرة بن يزيد وأبو محلم الشيبانى ، وقد تعدى سيلهم المصرين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زيد وأبو ضمضم الكلابيان وأبو شبل العقيلى والفقسى الأسدى ، ثم تجاوزها بعضهم إلى خراسان كأبى العميثل مؤدب الطاهريين بمرو .

غير أنه لم يعرف لهؤلاء الأعراب المرتحلين عن البادية إلى الحواضر ، ولا لأخوانهم الذين لم يرتحلوا عنها وإنما كان الرواة يرحلون اليهم فيها ، شىء من الكتب عن أدبهم وإنما عرفت الكتب لهؤلاء الرواة أنفسهم فكانوا مرجع الناس من نحاة وأدباء وبقى أولئك فى هذا الميدان الجنود المجهولين .

ومن الرواة المدونين أبو عمرو بن العلاء الذى أخذ عنه كل علماء عصره من نحويين ولغويين وأدباء ، ومما يؤسف له أنه فى آخر حياته أحرق دفاتره التى كانت إلى السقف كما ذكر صاحب فوات الوفيات ، ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير والفرزدق وكتاب الشعر والشعراء ،

ومنهم الأصمعى عبيد الله بن قريب صاحب الأصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب غيرهما فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، ومنهم أبو زيد الأنصارى صاحب النوادر فى اللغة وكتاب المطر واللبن ، ثم منهم القاسم ابن سلام صاحب غريب الحديث وغريب المصنف وفضائل القرآن والمواعظ والأمثال إلى غير هؤلاء ممن جمعوا فى روايتهم بين المنثور والمنظوم .

وهناك طائفة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات كما سبق ، والمفضل الضبى صاحب المفضليات ، وخلف الأحمر صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ، وأبو عمرو الشيبانى جامع أشعار القبائل ، وكل هؤلاء من رجال الطبقة الأولى فى هذا العهد ، وقد نشأت طبقة ثانية فى آخره كان من دأبها أن تجمع بين الروايات وتفاضل بينها ، منهم محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، وأبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب ، وكلاهما صدر كتابه بمقدمة باسقة الطول تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له فى عالم الأدب مكان واعتبار ، ومما يجدر تدوينه هنا أن تلك الطبقة الأولى قد حادت فى روايتها عن الاكثار من النحو كما حادت هذه الطبقة الثانية عن الاكثار من اللغة حيدة جعلت الأدب على يدى كلتيهما يتحيز عن النحو واللغة تحيزا من شأنه أن يحقق ماقدر له من شخصية ومكان .

وبعد فانا نعود فنقول ، كان نقد النحويين للشعر راجعاً إلى مخالفته للاصول التى استنبطوها فى الأعاريب والأبنية والأوزان والقوافى ، لا إلى مافيه من حسن أسلوب وجودة معنى ، فقد عاب عيسى بن عمر الثقفى على النابغة رفع كلمة ناقع مع أن صوابها النصب فى بيته :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

وعاب عبد الله بن إسحق الحضرمى على الفرزدق رفعه كلمة مجلف والصواب نصبها فى بيته .

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلف

وأخذ غيرهما على النابغة الأقواء فى بيتيه :

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

إلى نحو ذلك من النقد العلمى البحت الذى لايتصل بعناصر الأدب الفنية ولا ينبعث عن ذوق الناقد ، على أنا لانسوق هذا الحكم على النحويين عامة وفيهم الأديب الذى يروى الأشعار ويدرك مكامن الحسن فيها كأبى عمرو ابن العلاء الذى كان له فى النقد الأدبى آراء حسان مع أنه من كبارالنحويين. كان رحمه الله يقول أحسن شعر قيل فى الصبر على النوائب قول دريد ابن الصمة من أبيات :

يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وكان يستجيد قصيدة المثقب العبدى التى يقول فيها :

فاما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غثى من سمينى
وإلا فاطرحنى واتخذنى عـدواً أتقيك وتتقينى

ويقول لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه .

على أن أمثال أبى عمرو بن العلاء فى النحويين قليل ، وإن شئت فقل ليس له فيهم من مثيل ولذا عد من اللغويين الأدباء قبل أن يعد من أئمة النحاة ، ومن هنا نترك نقد النحاة دون الفيض فيه على أن نفيض ونكثر من نقد اللغويين الأدباء .

اطمأن اللغويون الادباء على ماأدركه الاسلاميون بفطرتهم حين طبقت الخصومات الادبية عليهم الآفاق من أن جريراً والفرزدق والاخطل أشعر الشعراء الاسلاميين ، ثم أخذوا يبحثون وينقبون عن سر هذا التقدم الذى خص به هؤلاء فهداهم بحثهم إلى أصلين أجمعوا عليهما على ما كان بينهم من وجوه خلاف .

الاصل الاول ، أن هؤلاء الثلاثة كثيرو الانتاج غزيرو المعين ، تتضح

كثرتهم فيما خلفوا من ثروة شعرية طائلة ، وتتضح غزارتهم فى طرقهم كثيراً من الفنون وفى امتداد نفسهم فى إطالة القصيد ، وهذا وذاك واضح فى دواوينهم وضوح الشمس فى رائعة النهار .

والاصل الثانى ، جودة شعرهم فى مبانيه ومعانيه ، واستيفاؤه الخصائص التى تستجيدها الاذواق فى الصياغات والافكار ، وهذا أمر يلمسه فهم القارىء لشعرهم ولو كان من الشداة . فما بالك بذوى الذوق السامى من الادباء ، وبعد هذا الذى أجمع عليه اللغويون الادباء فى هؤلاء ، تصدوا لكل منهم يتبينون خصائصه ومزاياه وما عسى أن يكون به المقدم على زميليه ، فعرفوا من مزايا جرير ، كثرة فنون شعره ورقته فى غزله ، ومن مزايا الفرزدق جزالة أسلوبه وبلوغه فى فخره ، ومن مزايا الاخطل كثرة طواله وشدة تهذيبه لشعره ، ولكن حين أرادوا معرفة المقدم منهم دب بينهم كبير خلاف ، حتى صار أصدق مايقال فى هذا الباب ماروى من أن هؤلاء الثلاثة لم يذكروا فى مجلس تفاضل اجتمع على تقديم أحدهم بحال .

وحين فاضت رواية الشعر الجاهلى ، والمعمعة قائمة بين الادباء حول هؤلاء الثلاثة الاسلاميين ، فطنوا إلى وجوه تشابه بينهم وبين ثلاثة جاهليين ، هم الاعشى ويشبهه جرير ، وزهير ويشبهه الفرزدق ، ثم النابغة ويشبهه الاخطل ، وبذلك اعتبروا هؤلاء الجاهليين الثلاثة المقدمين ، ولكنهم أجمعوا على إمام لهم ليس له من نظير مع الثلاثة الاسلاميين هو امرؤ القيس أشعر الشعراء أجمعين بالاجماع . ومن ثم وضع الاساس الاول لطبقات الشعراء فكان هؤلاء الاربعة وأولئكم الثلاثة الطبقة الاولى من الجاهليين والاسلاميين على الولاء .

ولقد تسنى لادباء اللغويين فى هذا العهد العباسى من كثرة ماقلبوا فى الادبين الاسلامى والجاهلى ، أن يضعوا عن مقدمى شعرائهما المذكورين وغيرهم قضايا أدبية لها بالنقد اتصال شديد ، سيان فى ذلك ما كان للشاعر وما كان عليه .

فقالوا إن شعر امرىء القيس ملىء بالمعانى التى لم يسبقه بها أحد ، وأن شعر زهير به من الابيات الحكيمة السائرة مالم يجاره فيها أحد ، وأن شعر النابغة قوى الصياغة شديد الاسر بالغ الايجاز حتى ليكتفى فيه بالبيت بل بنصفه بل بربعه ، وأن شعر الاعشى كثير الاوزان اللائقة بالغناء وبادى التحضر الملائم للهو . وقالوا إن شعر جرير سهل رقيق وأنه فيه قوى الطبع صادق الشعور ، وأن شعر الفرزدق صعب ملتو يرضى النحاة بما فيه من مداخلة وتقديم وتأخير ، وأن شعر الاخطل جزل رزين يؤثره العلماء .

وقال أبو عمرو بن العلاء فى عدى بن زيد « عدى بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى مجاريها .

وقال فى ذى الرمة « إنما شعره نقط عروس تضمحل عما ، قليل،وأبعار ظباء لها نفحة فى أول شمها ثم تعود إلى أرواح الابعار » يعنى أن شعره حلو أول مايسمع فاذا كرر إنشاده ذهبت طلاوته كنقط العروس التى تذهب بالغسل فهى كبعر الظباء الذى تقبل رائحته من أثر النبت الطيب الذى تأكله أول ما تشم ثم لا تلبث أن تزول فيكون كسائر الأبعار .

كما تسنى لهم أيضا أن يعرفوا عن الشعر فى العصرين الجاهلى والاسلامى قضايا عامة تتصل به أو بشعرائه وتصلح أن تكون من الأسس فى المحاكمة والموازنات . عرفوا أن الأغراض المفضلة هى النسيب والفخر والمديح والهجاء ، أما النسيب فلأنه أحسن الشعر تصويرا لجوانح النفس ونوازع الفؤاد،فضلا عن صلاحيته للموسيقى والغناء.وأما الثلاثة الأغراض الاخرى فلأنها خير مصور لحياة العرب الاجتماعية إذ ذاك من عصبية ونضال . وعرفوا من حيث الأساليب أن السهولة جودةوأن الجزالة جودة ولكنهما لا تجتمعان فى غرض واحد بل لكلتيهما مكان ومجال . وعرفوا أشياء بعينها لشعراء بأعيانهم ، فقد عرف يونس بن حبيب أن امرأ القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بنى الحسحاس وذا الرمة كانوا يحسنون وصف المطر ، وعرف أبو عبيدةأن طفيلا الغنوى والنابغة الجعدىوأبا دؤاد

الأيادى أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها ، كما عرف الأصمعى من اختص بغرض فأجاده فكان مما قال « ذهب أمية بن أبى الصلت بعامة ذكر الآخرة وعنترة العبسى بعامة ذكر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة بعامة ذكر الشباب ، ثم لم يرضوا أن يجعلوا المقلين ولو أجادوا فى درجة المكثرين ، ومن ثم لم يضعوا أشعر المقلين فى الجاهلية كطرفة بن العبد والمتلمس بن جرير والمسيب ابن علس والحصين بن الحمام مع شعراء الطبقة الاولى الاربعة المذكورين ، كما لم يضعوا أشعر المقلين فى الاسلام كالبعيث والقطامى وذى الرمة والكميت مع شعراء طبقته الأولى الثلاثة السابقين .

كشف أدباء هذا العهد إذن عن عنصر هام من عناصر النقد الأدبى ، هو كثرة الانتاج وجودته ، وبقدر ما اتفقوا على أن مقياس الكثرة هو كثرة القصائد وطولها وكثرة الفنون التى تعرض لها ، اختلفوا فيما عسى أن يكون مقياس الجودة ، ولسنا نعنى بالاختلاف فى هذا المقياس ، أنهم اختلفوا فى أصوله العامة من أن الجزالة جودة والسهولة جودة وسعة التصرف فى المعانى جودة وحسن الرمى بالتشبيهات جودة وهكذا مما لا خلاف من أحد عليه ، إنما نعنى أموراً أخرى تتصل بهذه الأشياء وأمثالها ، كأن يقال ما الجزالة ومتى تعد جيدة ؟ وما السهولة وفيم تكون جودتها؟إلى آخر ما ذكرنا وما لم نذكر من أمثال هذه القضايا . وإنما اتسعت مسافة الخلف بينهم فى هذه الشئون لاختلافهم فى الأذواق والأمزجة والخواطر فرادى وجماعات ، ولذا لم يك غريبا أن يختلفوا فى تقدير الشاعر من حيث إحلاله فى طبقة من الطبقات . وكذا من حيث مرتبته مع زملائه فى الطبقة الواحدة ، حتى صار لكل إقليم ولكل بلدة ولكل طائفة بل لكل ناقد ، شاعر هو المؤثر على غيره ، فكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً لبداوة شعره المتفقة وعيشهم ، وعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس لتبحر معانيه الملائمة لسعة أفكارهم ، وأهل الكوفة يقدمون الأعشى لتحضر شعره المتفق وطبعهم . وكان النحويون يقدمون الفرزدق لأن شعره

يرضيهم ويمد قواعدهم بالشواهد ، واللغويون يؤثرون ذا الرمة لكثرة غريبه ، والمغنون يرتاحون إلى جرير لسهولة شعره وموسيقية أوزانه ، وكان يونس ابن حبيب النحوى فرزدقيا لما سبق ، والمفضل الضبى اللغوى أخطليا ومحمد ابن اسحق الأخبارى جريريا ، على أن أذواقهم تلاقت فى كثير من هذه الأمور متفقة الرأى واحدة الحكم ، فكان من ذلك أن ميزوا الطبقات وإن اختلفوا فى تفضيل شعراء كل طبقة ، وأن عرفوا لكل شاعر ميزات يفضل بها غيره من شعراء طبقته ، وأن دونوا قضايا عامة يكون اليها التحاكم فى المبانى والمعانى أو الصياغات والأفكار وخلصوا من هذا كله إلى عناصر أربعة اتخذوها مقاييس للنقد : —

أولها الكثرة والجودة وقد أشبعنا القول فيه آنفا ، وهو مايسمى بالعنصر الذاتى إما لأنه يتصل بذات الادب أو لانه يعبر عن ذات نفس الناقد أو لهذا وذاك فى آن .

وثانيها العنصر الموضوعى وأحرى أن يقال الموضعى ، ويعنون به صلة الشعر بالبيئة الحسية التى تحيط بقائله ، وما عسى أن يكون قد توفر لبعضها من سلامة ونقاء ، تضفى على الشعر صحة وجودة ، أو خالط بعضها من عجمة وفساد تهجن الشعر وتطعن فى سلامته ، ولعل الذى دعاهم إلى ذلك موقف الشعر إزاء صلاحيته للاستشهاد به أو انعدام تلك الصلاحية فيه ، ولذلك تراهم لايستخدمون فى ذلك شعر عدى بن زيد على جاهليته ، لانه ليس بنجدى ولكثرة ماخالط الاعجام ، كما نسمعهم يقولون إن إقامة عبيد الله بن قيس الرقيات بتكريت ، وإن كان من صميم الاسلاميين قد أضرت بفصاحته الحجازية ، وهم فى هذا العنصر لايتعرضون لذاتية الشعر من حيث الجودة والرداءة ، ولا ينزعون فى ذلك عن أذواقهم من حيث الملاءمة كما كانوا يفعلون فى العنصر الذاتى ، وإنما يعرضون للبيئة من حيث صلتها بالشعر وصاحبه ، أى من الناحية الوضعية فقط .

وثالثها - العنصر الاجتماعى ، وذلك لانهم لم يقفوا حيال البيئة عند

الناحية الحسية منها ، وإنما تعدوها إلى البيئة المعنوية التى تعبر عن شئون الاجتماع وصلة الشاعر بهذه الشئون ، كالذى لحظه الأصمعى من أن شعر حسان فى الجاهلية أقوى منه فى الاسلام ، وهل لذلك من معنى فى نفسه، إلا أنه يرى الشعر صورة للحياة الاجتماعية العامة ، وأنها كانت فى الجاهلية قائمة على نوازع الشر والأهواء وفيها للشعر مدد وبنهوضه اتصال ، ثم كانت فى صدر الاسلام فاضلة خيرة أبعد ما تكون عن العصبيات والمنازعات، فنضب بنضوب هاتين معين للشعر كان ذا تيار .

ورابعها — العنصر التاريخى وقد حملهم على التفكر فيه ماشاع من افتعال الشعر على قائليه بحكم ما تجدد بعد الصدر الاسلامى من عصبيات ، دفعت الواضعين وفيهم ملكة واقتدار ، أن ينحلوا الشعر لشعراء أو قبائل ، تحقيقا لما يريدون من حط لهم أو ارتفاع ، فهم من هذه الناحية كانوا يحققون الشعر تحقيقا تاريخيا ، من حيث صحة نسبته إلى قائله أو فسادها ، غير ناظرين إلى شىء من نواحى العناصر الثلاثة السابقة بحال ، وقد جلوا فى هذا الميدان فعرفوا الدساسين وما دسوا ، وأن فى مقدمتهم خلفا الأحمر من البصريين وحمادا الراوية من الكوفيين ، مستعينين على ذلك بدراسة مباعث الشعر محل التحقيق ، وحياة الشاعر من حيث صلتها بمن قيل فيه الشعر من الممدوحين أو المهجوين ، ثم موضع الرواة له من حيث الثقة بهم أو عدمها ، كما كان يفعل علماء الحديث مع رجاله الراوين .

وبعد فان لنا أن نقرر مطمئنين أن هذا العهد العباسى الأول لم ينقض إلا وقد وضعت للنقد الأدبى أسس ومقاييس هى التى عبرنا عنها آنفا بالعناصر وجعلناها أربعة ، وإذا ما أردنا أن نتلمس مرجعا عرف مؤلفه تلك العناصر وطبق عليها ، لم نجده إلا كتاب « طبقات الشعراء » لأنى عبد الله بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ أى قبل انقضاء هذا العهد بسنة واحدة ، وإذا عرفنا أن أستاذه الذى تخرج عليه وهو حماد بن سلمة قد توفى سنة ١٦١ أدركنا أن ابن سلام خالط هذه الصناعة صناعة الشعر أكثر من ستين سنة أحاط فيها

بما دونه اللغويون والأدباء وزاد عليه ، ثم تناوله بما له من صحة ذهن فى النقد ،فلم ماتبعثر من آراء النقاد عن الجاهليين والاسلاميين ، ضاما بين شتاتها مؤلفا بين متشابهها ، وزائدا عليها من آرائه مالم يسبق إليه ، بروحه العلمى الأدبى القوى ، حتى غدا كتابه هذا أقدم وثيقة لتاريخ النقـــد عن أدب الجاهلية والاسلام .

وأنت تراه قد اتخذ العنصر الأول وهو الذاتى من حيث الـكثرة والجودة الأساس لتأليف كتابه ، حيث جعله على نظام الطبقات وجعل المدار الهام لتعيين طبقة الشاعر ومكانه من طبقته كثرة ما خلف من شعر ومقـــدار ما أجاد فيه ، وإن لم يخل مع هذا من مآخذ ليست بالهنات الهينات ، ترجع أكثر ماترجع إلى مبالغته فى عدد الطبقات إذ جعلها عشرا ، وما كان يحمل أن تزيد على ثلاث ، وإلى وقوفه عند حد الأربعة فى كل طبقه تأثرا بالأربعة الجاهليين شعراء الطبقةالأولى ، وما كان له أن يتقيد بهذا العدد ولا بالتزام عدد واحد فى كل الطبقات . فكانمنها فى الجاهليين انحداره بطرفة إلى الطبقة الرابعة وهوجدير ألا يجاوزالثانيةوكذلك الحال فى انحداره بعنترة وابن كلثوم وابن حلزة وهممن أصحاب المعلقات إلى السادسة ،على حين وضع فىالخامسة شعراء دونهم هم خداش بن زهير والأسود بن يعفر وأبو زيد المخبل وتميم بن أبى مقبل ، ومنها فى الأسلاميين جعله الراعى رابع الطبقة الأولى وهو دون ذلك بكثير ، وانحداره بابن قيس الرقيـات إلى السادسة فى حين وضع فى الرابعة من هم دونه كحميد بن ثور والاشهب بن رميله .

وتراه فى العنصرالثانى وهو الموضعى قد قسم الشعراء الجاهليينمن حيث البيئة إلى بدوهم الغالبية العظمى والى حضرهم شعراء القرى العربية الخمس، يعنى المدنية ومكة والطائف واليمامة والجزيرة ثم جعل الشعر للبـادية على القرى فقسم شعراءها وحدها إلى طبقات ، وذلكإيمانا منه بما لأحوال البادية دون المدن من إلهاب قرائح الشعراء ، لمـا فيها من عصبية وخصومة وحرب

وعدوان ، ولذلك حين فضل شعراء المدينة على شعراء سائر المدن نسب ذلك فيهم إلى ما كان بين العنصرين العامرين لها وهما الاوس والخزرج من محاربة وخلاف .

وتراه فى العنصر الثالث وهو الاجتماعى قد فرق فى الطبقات بين الجاهليين والاسلاميين ، لما بين العهدين من تفاوت شديد فى أمور الاجتماع ، كما تراه فرق فى كلا العهدين بين شاعر وشاعر ، فلم يجعل عدى بن زيد على جاهليته بدويا لكثرة ما كان يؤم الحضر ويقيم فيه ، وجعل ذا الرمة على إسلاميته كبدو الجاهلية لشغفه بالبادية وإيثاره الاقامة فيها والتشبه بينها ، دون حضر المدن من الاسلاميين .

ثم تراه فى العنصر الرابع وهو التاريخى قد عنى أتم عناية بالشعر الموضوع على شعراء الجاهلية والاسلام ، فأفاض فيه وأطال ، مؤيداً مايقول بالدليل والبرهان ، فحيث كان يبرهن على أنه لاشعر لثمود وعاد ، استخدم الدليل النقلى من قول القرآن « وأنه أهلك عادا الاولى وثمود فما أبقى » ومن أن اللغة العربية لم تكن ذات وجود على عهد عاد ، على أن عادا من اليمن وما كانت اليمن تتكلم بلغة عدنان ، ثم الدليل العقلى من أنه يستحيل على ثمود أن ينسب اليها شعر كالذى لم تعرفه طبيعة اللغة إلا قبيل الاسلام بنحو القرن والنصف ، حيث تم نموه بتقصيد القصيد ، وحيث كان يبرهن على أن هناك وضعا فى العصر الاسلامى رجع أسبابه إلى عصبية القبائل التى حرصت على أن تضيف لاسلامها ما يمكن لها فى ميادين التماجد والفخار ، وإلى رغبة الرواة أنفسهم فى أن يزيدوا فى مأثور الاشعار لشتى الاسباب .

تلك هى النواحى التى قام عليها أكثر ماقام كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام ، إلى أشياء أخرى ليست بالقليلة ،كان يرمى بها من نفسه فى ثنايا مايقول ، وحسبك عن درجة ابن سلام فى ميادين النقد إدراكه أن للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف الصناعات ، وذلك حيث يقول فى بدء المقدمة من هذا الكتاب « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم

كسائر أصناف العلم والصناعات ، منهـا ماتثقفه العين ومنها ماتثقفه الاذن ومنها ماتثقفه اليد ومنها مايثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والـيـاقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة ، فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها ، ومنه البصر بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه ، واختلاف بلاده وتشابه لونه وذرعه ، حتى يضاف كل صنف منها إلى بلده الذى خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف جيدة النهود واردة الشعر ظريفة اللسان ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار وبمائتى دينار وتكون أخرى بألف دينـار وأكثر وأكثر ولا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، وتوصف الدابة فيقال خفيف العنان لين الظهر جيد الحافر فتى السن نقى العين فيكون بخمسين دينارا أو نحوها وتكون أخرى بمائتى دينار وأكثر وهذه صفتها ، ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء إنه لندى الحلق حسن الصوت طويل النفس مصيب اللحن ، ويوصف الآخر وأخرى وأخرى بهذه الصفة وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهى اليها ولا علم يوقف عليه ، وإن كثرة المدارسة للشىء لتعين على العلم به وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به » .

ولاشك أن ابن سلام بما حصل من علم فيما مد له من عمر ، وبما رزقه فى هذا الباب من عظم هبة وحسن استعداد ، كان من أهل صناعة الشعر وثقافته إلى درجة مكنته بكتابه هذا أن يعبد الطريق وينيره أمام سالكيه بعده ، من نقدة الشعر وجهابذة الادب ، كما سترى إن شاء الله .

السباعى بيومى

سـيبويه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

المدرس بكلية دار العلوم

١ ـ حياته

اسمه ونسبه :

يعنى الباحث كثيراً بدراسة نسب من يترجم له ، إذا كان من وراء هذه الدراسة نور يضىء جوانب البحث ، أو يوضح نتيجة من النتائج ، أو يفسر أثراً من الآثار ، فقد يكون فى أسرة من الأسر توارث لنوع خاص من أنواع المعرفة ، أو استعداد للون من ألوان الثقافة والفنون ، ولكننا نبحث فى نسب سيبويه فلا نجد شيئاً يلقى بصيصا من الضوء على حيــاة آبائه بل لا نعرف من هؤلاء الآباء إلا اثنين هما أبوه عثمان وجده قنبر ، وقنبر اسم عربى قح هو اسم جد الشاعر الحكم بن معمر ، وأرجح أن ذلك هو ضبط اسم جده ، لا قنبره كما فى كتاب نزهة الألباء فى الطبعة القديمة التى عثرت عليها ، ويدل على ذلك رثاء الزمخشرى له كما سنرويه بعد ، فان الشعر لا يسمح بالنطق بقنبرة وليست القاف مفتوحة كما ضبطت فى كتاب معجم الأدباء ، وسلفستر دى ساسى (ص ٤٠) وقد ترك ابن خلكان ضبط هذا الاسم مع شدة عنايته بضبط الأسماء ، ولعله لم يصح عنده ضبط يذكره . واكتفاء المؤرخين بهذين الاسمين من سلسلة نسبه ، قد يكون من حقنا أن نستنبط منه أن أباه وجده هما اللذان دخلا فى الاسلام ، وسميا بأسماء عربية ، ولم يكن لأجداده الفرس من الخطر مايدفع المؤرخين إلى حفظ أسمائهم ،

وسيبويه وأسرته موال لبنى الحارث بن كعب ، أو لآل الربيع بن زياد ، أو آل ولاؤه لآل الربيع بعد بنى الحارث .

أما أمه فكانت فارسية كذلك بدليل أنها لقبت ابنها هذا اللقب الفارسى الصريح الذى عرف به فى التاريخ ، وبدليل هجاء بشار له بأنه ابن الفارسية كما سيأتى ، وقد صار لقبه أشهر من اسمه وهو عمرو ، وكنيته وهى أبو بشر أو أبو الحسن ، ولا أريد أن أطيل فى معنى هذا اللقب ، فيكاد مؤرخو العرب يجمعون على أن معناه رائحة التفاح ، ثم يعللون سبب هذا التلقيب ، مدعين حينا أنه كان جميلا ذا وجنتين كالتفاح ، وحينا أنه كان جميل الرائحة حتى إن من يقرب به كان يشم منه رائحة التفاح ، وهذه تعليلات لا قيمة لها ولا داعى إليها ، لأن الأسماء لا تعلل - كما يقولون - ويقول المستشرق Huart فى كتابه La Littérature arabe الأدب العربى إن هذه الصيغة قد يكون مدلولها التصغير فى اللغة الفارسية ، فيكون معنى اللقب إذاً : التفاحة الصغيرة ، والرأى فى ذلك للعلماء باللغة الفارسية . وسيبويه هو الطريقة التى ينطق بها هذا النوع من الأسماء المنتهية بويه كابن خالويه ونفطويه ، أما نطقه فى لغته الأصلية فسيبويه بفتح الياء كما ضبطه ابن خلكان وصاحب إعجام الأعلام ، وبكسرها كما ضبطه إيوارت ، وقد تعب المستشرق الفرنسى دى ساسى فى ضبط هذه الكلمة وبيان معناها فى كتابه .An. Gra. Ara والمرجع أيضا علماء اللغة الفارسية .

سيبويه إذاً فارسى صريح من ناحية أمه وناحية أبيه ، وربما كانت اللغة الفارسية تحيا نوعا من الحياة فى منزله ، وعلى لسان أمه وأبيه ، ولعله كان على علم قليل أو كثير بهذه اللغة ، وهذا مالا أستطيع إثباته وإن كنت أستأنس له بهذا الفصل الذى عقده فى كتابه للألفاظ المنقولة عن الأعجمية ، وإطراد الإبدال فى حروف الكلمات الفارسية عند تعريبها لوجود حروف فى الفارسية لا نظير لها فى العربية .

كان كثير من حملة العلم ودراسى اللسان العربى فى تلك العصور - من

الفرس . والمؤرخون يعللون ذلك بعلل كثيرة ، كان من جملتها ولا ريب تطلع الشبان ذوى المواهب إلى نيل المناصب السامية فى دولة كانت تعتمد على سواعد الفرس ، ولقد كان هذا الباعث ـ بدون شك ـ واحداً من بين الأسباب التى حفزت سيبويه إلى دراسة اللغة العربية والتبحر فيها ، كما يدل على ذلك رحلته إلى بغداد فانها كانت رحلة يريد من ورائها المجد المادى والأدبى ، كما سنرى .

مولده :

لا سبيل إلى تحديد سنة ميلاده ، فقد أغفلها المؤرخون جميعا ، ولا محيص لنا من الفرض والتخمين للوصول إلى معرفة تلك السنة على وجه التقريب ، ذلك أن التاريخ يذكر من أساتذة سيبويه عيسى بن عمر الثقفى ، الذى يكاد المؤرخون يجمعون على أنه توفى سنة تسع وأربعين ومائة، ويقول ياقوت فى كتابه معجم الادباء : « وما يكون قد أخذ عنه إلا وهو يعقل ، ولا يعقل حتى يكون بالغا » فاذا حسبنا لبلوغ سيبويه سن الرشد أربعة عشر عاما ، كان لنا أن نضع ميلاد سيبويه فى العام الخامس والثلاثين بعد المائة ، ويكون عيسى بن عمر . من أوائل الاساتذة الذين أخذ عنهم سيبويه .

أين ولد هذا النابغة ؟ يجهل التاريخ كذلك مكان هذه الولادة ، فهو لا يعرف البلد الذى رآه للمرة الاولى ، ولا يكاد يذكره إلا وهو طالب طالب للعلم ، يغدو إلى مجالسه فى مساجد البصرة ، وبعض المؤرخين يروى أنه ولد بالبيضاء التى يصفها ياقوت فى معجم البلدان بأنها مدينة مشهورة بفارس ، وأنها أكبر مدينة فى كورة إصطخر ، وإنما سميت بالبيضاء لان لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها ، وكانت معسكرا للمسلمين ، يقصدونها فى فتح إصطخر ، وهى مدينة تقارب إصطخر فى الكبر ، وهى تامة العمارة خصبة جداً ، ينتفع أهل شيراز بميرتها ، وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ ، وينسب اليها كثير من العلماء المبرزين ، عد ياقوت منهم جملة صالحة .

أرجح هذه الرواية ، واستأنس لهذا الترجيح بما سنراه بعد من أنه رحل

بعد إخفاقه فى بغداد إلى فارس ، عائدا ، فى أغلب الظن إلى مسقط رأسه ، فوافاه الأجل بها أو قبل أن يصل إليها فى شيراز .

نشأته :

وإذا كان التاريخ يجهل بالتحديد منبته ، فهو يجهل كذلك نشأته الأولى ، ولا يعرف ماشداه الطفل من العلوم ، ولا ما أخذه من ألوان الثقافة ، وأغلب الظن أنه كان كناشئة هذا العصر ، يقرءون القرآن ، ويحفظون شعر العرب وشيئا من السيرة النبوية وتاريخ الغزوات ، ثم يمضى من يريد التخصص فى مادة فيما خصص نفسه له .

ويروى كثير من المؤرخين ، أن سيبويه لم يطلب النحو أول ماطلب ، بل كان يطلب الفقه والآثار ، أى الحديث وتاريخ الغزوات . قال نصر بن على ، « كان سيبويه يستملى على حماد بن سلمة ، فقال حماد يوما : « قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » ، فقال له حماد : « لحنت ، ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه : « لاجرم ، لأطلبن علما لاتلحننى فيه أبدا » . وطلب النحو ، ليس فى هذه القصة شىء من الغرابة ، فقد يعن للمرء وهو يدرس مايشعره بالنقص فى ثقافته ، فيتجه لاستكمال هذا النقص ، وقد تظهر موهبته المكونة فى تلك المادة الجديدة ، فينبغ ويمتاز ، ومما لاريب فيه عندى أن سيبويه لم يكتف بالنحو والفقه والآثار بل ضرب فى كل علم من علوم عصره بسهم . قال ابن عائشة : « كنا نجلس مع سيبويه النحوى ، فى المسجد ، وكان شابا ، نظيفا جميلا ، قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فى كل أدب بسهم ، مع حداثة سنه وبراعته فى النحو ، فبينا نحن ذات يوم إذ هبت ريح ، فأطارت الورق فقال لبعض أهل الحلقة ، انظر أى ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس ، فنظر ثم عاد ، فقال : « ماثبتت على حال » ، فقال سيبويه : « العرب تقول

فى مثل هذا : قد تذاءبت الريح ، وتذاءبت ، أى فعلت فعل الذئب ، وذلك أنه يجىء من هاهنا وهاهنا ، ليخيل ، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب » . وإذا صحت هذه الرواية ، وهى ليست بعيدة الصحة ، دلتنا على منهج سيبويه التعليمى ، واعتماده على التطبيق العملى فيما يلقيه من القواعد والنظريات ، وإن علمه باللغة يدلنا عليه كثير من فصول كتابه ولا سيما أبواب الصرف ففيها من غريب الكلمات مايدلنا على محصول كبير فى اللغة :

أساتذته :

أما العلم الذى كرس له معظم وقته ، ونبغ فيه وشهر به ، فهو علم النحو وكتابه فيه أول كتاب وصل إلينا فى ذلك العلم ، ويحفظ التاريخ من أساتذته فى تلك المادة سيد أهل الأدب وصاحب العقلية الجبارة الخليل بن احمد ، وهو أعظم أساتذته أثراً فيه ، وأكثرهم اتصالا به ، وأخذا عنه ، وكان سيبويه يعد أبرع تلاميذ الخليل فى النحو ، وأوثق من حمل عنه ، ومنهم عيسى بن عمر الثقفى ، مؤلف كتابى الاكمال والجامع فى النحو ، وهو الذى أخذ عن أبى عمرو بن العلاء تلميذ يحيى بن يعمر حد تلامذة أبى الأسود ، ومنهم أبو زيد الأنصارى تلميذ أبى عمرو بن العلاء أيضا ، وقد عاش أبو زيد هذا بعد سيبويه بنيف وثلاثين سنة ورأى المجد الذى أدركه تلميذه بتأليف الكتاب ، وقد نقل عنه سيبويه فيمن نقل ، فكان الأستاذ يقول كالمفتخر بذلك : كان سيبويه غلاما يأتى مجلسى وله ذؤابتان فاذا سمعته يقول : حدثنى من أثق بعربيته فانما يعنينى ، ومنهم يونس تلميذ ابن العلاء أيضا ، وقد عاش كذلك بعد سيبويه . وروى أنه لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب: إن سيبويه قد ألف كتابا فى ألف ورقة من علم الخليل ، قال يونس ، ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ ! جيئونى بكتابه ، فلما نظر فيه ورأى كل ما حكى فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فى جميع ماحكاه عنه كما صدق فيما حكاه عنى ويخيل إلى أن الصلة لم تكن وثيقة بين سيبويه وأستاذه

يونس كما نلمس ذلك فى تلك الرواية وفى رواية أخرى نقلها ياقوت . ومن أساتذته فى اللغة أبو الخطاب الأخفش الكبير ، أستاذ أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وهو غير أبى الحسن الأخفش تلميذ سيبويه ، وإن كان أكبر من أستاذه سنا ، وروى سيبويه اللغه أيضا عن أبى عمر بن العلاء كما ذكر ذلك ياقوت فى معجم (حـ ١١ ص ١٦٠).

زملاؤه :

ويذكر التاريخ من زملائه ثلاثة نبغوا على يد الخليل بن احمد : هم النضر ابن شميل ، وكان أبرع تلاميذ الخليل فى اللغة ، ومؤرج العجل وكان أبرعهم فى الشعر واللغة ، وعلى بن نصر ، وكان أبرعهم فى الحديث .

مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة :

نشأ سيبويه بالبصرة ، وأخذ علم النحو عن أعظم علمائها قدرا ، ومعروف أن البصرة قد سبقت الكوفة فى هذا اللون من الدراسةوانفردت به ، حتى أخذ هذا العلم عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى — أبو جعفر الرؤاسى ، وعنه وعن غيره من علماء البصرة أخذ الكسائى والفراء معاصرا سيبويه ، وقد بدأت مدرسة الكوفة فى النحو منذ أنشأها الرؤاسى تناظر مدرسه البصرة . يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام (حـ ٢ ص ٢٩٤) : بدأ الخلاف هادئا بين الرؤاسى فى الكوفة والخليل فى البصرة ، ويظهر أن العصبية العلمية بين المدرستين كانت مؤسسة على العصبية السياسية التى ظهرت بين البلدين ، فقد كان الكوفيون يميلون فى الجملة سياسيا إلى دولة بنى العباس بينما كان البصريون منصرفين عنها ، (وقد ظهر فى البصرة محمد بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الذكية ، والذى حاربه المنصور ، وكان هو المرشح للخلافة قبل أن يأخذها العباسيون) .

أهم الفروق بين المدرستين

وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت

أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة فى الرفع والنصب والجر والجزم ونحوها ، تلتزمها وتريد أن تسير عليها فى دقة وحزم ، وإذا كانت اللغات دائما لا تلتزم القواعد العامة دائما ، بل فيها مسائل لا يمكن أن تجرى على القاعدة وخصوصا اللغة العربية التى هى لغات قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ... أراد البصريون ، تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فاذا ثبت صحتها قالوا إنها تحفظ ، ولا يقاس عليها ، بل جرءوا على أكثر من ذلك فخطئوا بعض العرب فى أقوالهم إذا لم تجر على القواعد فالبصريون إذا رأوا (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر غالبا ، ثم رأوها فى بعض المواضع لا تسير هذا السير مع الوثوق بصحه ماورد نحو : (إن هذان الساحران) ألزموا الناس باتباع الأكثر الأغلب ، فهم قد فضلوا القياس وآمنوا بسلطانه وجروا عليه ، وأهدروا ماعداه ...

أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك ، ورأوا أن يحترموا كل ماجاء عن العرب ، ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة ، قال السيوطى فى بغية الوعاة : إن الكسائى كان يسمع الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه ، فأفسد النحو بذلك ....

فاذا أضفت إلى ذلك أن الكوفيين كانوا أكثر رواية للشعر ، وأن الشعر المصنوع لديهم أكثر من الشعر المصنوع عند البصريين أدركت مقدار الخلف بين البصريين والكوفيين فى مسلكهم ...

ونرى فى هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلا و وأن طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراما لما ورد عن العرب ...

وكان البصريون أكثر اعتدادا بأنفسهم ، وأكثر شعورا بثقة مايروون ، وأشد ارتيابا فيما يرويه الكوفيون لذلك كان الكوفى يأخذ عن البصرى ، ولكن البصرى يتحرج عن أن يأخذ عن الكوفى . اهـ كلام الاستاذ أحمد أمين .

وسوف نرى أثر هذه النزعة التعليلية القياسية فى كتاب سيبويه ، وسنرى أن اعتداد سيبويه بالقياس قد كان من الاسباب التى جعلته يخفق فى رحلته إلى بغداد .

رحلته إلى بغداد

متى رحل سيبويه إلى بغداد ؟ ولم ؟ وفى مجلس من دارت المناظرة بينه وبين الكسائى ؟ وكيف أديرت ؟ وبم انتهت ؟ ولم انتهت كذلك ؟ وما الرأى فى المسألة التى كانت موضع النزاع بينهما ؟ وما نتيجة إخفاق سيبويه ؟

أما أن سيبويه رحل إلى بغداد ، ودارت بينه وبين الكسائى مناظرة فذلك مالا سبيل إلى الشك فيه ، ولكن متى رحل إلى بغداد ؟ لم يحدد التاريخ هذه السنة ، وكل مايذكره أن الرحلة كانت فى عهد الرشيد ، وأنها كانت إلى يحي بن خالد البرمكى ، ثم يذكرون أن الرحلة قد تمت ولسيبويه من العمر نيف وثلاثون سنة ثم مات بعد هذه الرحلة بقليل . والبعض يذكر أنها تمت ولسيبويه نيف وثلاثون سنة ، ولكنه عاش بعدها نحو عشر سنوات ، ولا سبيل إلى استخلاص وجه الحق من هذه الأقوال المتضاربة ، والذى أرجحه — لأن أكثر المؤرخين عليه — أن سيبويه لم يعمر طويلا بعد هذه الرحلة ، فاذا أضفنا إلى ذلك أنه مات — كما سأرجح ذلك فيما بعد — وعمره نيف وأربعون سنة ، كانت رحلته إلى بغداد بعد الاربعين من عمره حول سنة ١٧٩ هجرية .

أما الباعث على تلك الرحلة فالطموح إلى نيل المجد المادى والادبى ، فقد كان الكوفيون إلى ذلك الحين يستأثرون بهبات الخلفاء والقيام على تربية أولادهم ، فطمع سيبويه فى أن يفتح باب الخلفاء والامراء للبصريين ، وأن يشارك الكوفيين حظهم ، وكان واثقا بنفسه الثقة كلها مؤمنا بتفوقه وقدرته على الغلب والظفر فأراد أن يبرهن للامراء على أن البصريين يفوقون الكوفيين ويبزونهم ، فعمد إلى رئيسهم مؤمنا بأن انتصاره عليه انتصار

للبصرة على الكوفة ، ومن وراء هذا النصر يجلس هو على قمة المجد الأدبي ، ويظفر بما يرغب من المال والثراء ، ورغبته فيهما واضحة ، حتى ليروى أنه بعد أن أخفق في مناظرته قال الكسائي ليحيي : ولهجة الشماتة والانتصار بادية عليه ، بعد أن كان قلبه يرتجف عندما سمع برغبة سيبويه في الحضور إلى بغداد ـ قال : « أصلح الله الوزير ، إنه قد وفد إليك من بلده مؤملا فان رأيت ألا ترده خائبا ، فأمر له بعشرة آلاف درهم . وشهرة البرامكة بالبذل والعطاء هي التي ـ بلا ريب ـ جذبت اليهم سيبويه .

أما المناظرة فكانت في مجلس يحيي بن خالد البرمكي ، وعنده ولداه جعفر والفضل ، وأفضل الروايات في وصف هذه المناظرة ماذكره ياقوت في معجمه نقلا عن الاخفش والمبرد وثعلب ، قالوا : « قدم سيبويه إلى العراق على يحيي بن خالد البرمكي ، فسأله عن خبره ، فقال : جئت لتجمع بيني وبين الكسائي ، فقال : لا تفعل ، فانه شيخ مدينة السلام ، وقارئها ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من في المصر له ومعه ، فأبى إلا أن يجمع بينهما (ومن ذلك تبدو رغبة سيبويه في التحدي والغلب وثقته بنفسه) فعرف الرشيد خبره ، فأمره بالجمع بينهما فوعده بيوم ، فلما كان ذلك اليوم غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد ، فوجد الفراء والاحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه ، فسأله الاحمر عن مائة مسألة فما أجابه عنها بجواب إلا قال : أخطأت يابصرى ، فوجم سيبويه وقال : هذا سوء أدب ، ووافى الكسائي وقد شق أمره عليه ، ومعه خلق كثير من العرب ، فلما جلس قال له : يابصرى (ومن هذه النسبة يظهر أن المناظرة لم تكن مناظرة شخصية ، بل كان يلاحظ فيها أنها مناظرة بين البصرة والكوفة ، ولذلك أهمل ذكر اسم سيبويه في مخاطبته ، واستبدل بيابصرى) كيف تقول : خرجت وإذا زيد قائم ، قال خرجت وإذا زيد قائم ، قال فيجوز أن تقول : خرجت فاذا زيد قائما ، قال : لا ، قال الكسائي : فكيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ، أو فاذا هو إياها ؟

فقال سيبويه : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائى : لحنت وخطأه الجميع . وقال الكسائى : العرب ترفع ذلك كله وتنصبه ، ودفع سيبويه قوله . فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما ، وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما : وهذا موضع مشكل ؟ فقال الكسائى : هذه العرب ببابك ، قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت وأمر بإحضارهم ، فدخلوا ، وفيهم أبو فقعس ، وأبو دثار ، وأبو ثروان ، فسئلوا عن المسائل التى جرت بينهما فتابعوا الكسائى .

هذه هى الرواية المعقولة للطريقة التى دارت بها المناظرة بين الكسائى وسيبويه ، وأغلب الظن أن الأعراب الذين استشهد بهم الكسائى ، قد نطقوا بتلك الجملة كما نطق ، وأغلب الظن أيضا أن بعض العرب ينطق بالجملة كذلك . وقد قال أصحاب سيبويه إن الأعراب الذين شهدوا للكسائى من أعراب الحطمية الذين كان الكسائى يقوم بهم ويأخذ عنهم . أما تلك الرواية التى تزعم أن الاعراب اكتفوا بقولهم الحق ما قال الكسائى ، وهو كلام العرب ، ولم ينطقوا كما نطق الكسائى ، فغير معقولة ولا مقبولة ، فقد كان سيبويه يعلم أن العرب الخلص فى ذلك الحين يسبق الصواب إلى ألسنتهم .

ولم يكن سيبويه من قلة الذكاء بدرجة أنه لايطلب من الاعرابى أن يتكلم ، ويرجح الاستاذ أحمد أمين أن أصبع السياسة قد لعبت فى هذه المسألة . ويروى ابن خلكان مايفهم منه أن المسألة كانت مدبرة ضد سيبويه البصرى ، وكان الأمين تلميذ الكسائى من القائمين فى هذا التدبير ، وأنهم أحضروا أعرابا ، مرنوا ألسنتهم على أن تنطق بما ينطق به الكسائى فيتم الامر ويحكم للكوفة على البصرة ، وفى ذلك إذلال لها أيما إذلال . والذى أرجحه أن المسألة أبسط مما يتصور حتى مع فرض أن إصبع السياسة قد لعبت فيها ، ذلك أن الكسائى يعلم أن البصريين ، وعلى رأسهم سيبويه ،

لا يعتدون بغير القياس . ولا يقرون مايخالفه،وإن ثبت سماعه ، ولا يجيزون القياس عليه ، وكان من اليسير على الكسائى أن يأتى بمسألة تخرج عن القياس ولا يعدم أن يجد قوما ينطقون كما ينطق ، ونحن نعلم أن بعض العرب قد شذ عن أشهر ماهو مألوف فى اللغة ونظم الكلام .

والآن ، ماوجه الصواب فى هذا الخلاف ؟ لاشك أن القياس هو ماقاله سيبويه ، وهو المتمشى مع المنطق فهو مبتدأ ، وهى خبر . وهما ضميرا رفع . وأما خرجت وإذا زيد قائم فيجوز فى قائم الرفع والنصب ، وإنما جاز فيها الوجهان وامتنع فى فاذا هو هى لأن قائما تنصب على الحال وهو نكرة أما إياها فمعرفة لاتصلح أن تكون حالا فيتعين أن نأتى بالضمير المعرفة خبراً .

حبسة لسانه

يرجع إخفاق سيبويه فى هذه المناظرة فضلا عن التحامل عليه ، وأنه لم يستصحب معه أنصاره ، ولا يؤمن بالقياس على الشاذ إلى أنه لم يكن من الفصاحة بحيث يستطيع التأثير فى سامعيه. ويكاد مؤرخو سيبويه يجمعون على أنه كان ألكن ، حدث أحمد بن معاوية قال ذكر سيبويه عند أبى فقال: عمرو بن عثمان ، قد رأيته ، وكان حدث السن ، كنت أسمع فى ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل ، وقد سمعته يتكلم ، ويناظر فى النحو ، وكانت فى لسانه حبسة ونظرت فى كتابه فرأيت علمه أبلغ من لسانه وكانت هذه اللكنة سببا قوياً فى إخفاقه فى المناظرات. فانه لم يخفق فى مناظرته للكسائى فحسب ، ولكنه أخفق فى مناظرة أخرى دارت بينه وبين الأصمعى، وكان الحق فيها معه ، ولكنه هزم بسبب هذه اللكنة فى لسانه : حدث أبو حاتم السجستانى قال : دخلت على الأصمعى فى مرضه الذى مات فيه فسألته عن خبره ، ثم قلت له : فى نفسى شىء أريد أن أسألك عنه قال : « سل » فقلت : « حدثنى بما جرى بينك وبين سيبويه من المناظرة » فقال : والله لولا أنى لا أرجو الحياة من مرضي هذه ماحدثتك ، إنه عرض علي شىء من الأبيات

التي وضعها سيبويه فى كتابه ، ففسرتها على خلاف مافسره ، فبلغ ذلك سيبويه ، فبلغنى أنه قال : لا ناظرته إلا فى المسجد الجامع ، فصليت يوما فى الجامع ، ثم خرجت فتلقانى فى المسجد فقال لى : اجلس ياأبا سعيد، ماالذى أنكرت من بيت كذا و بيت كذا ؟ ولم فسرت على خلاف مايجب ؟ فقلت له : مافسرت إلا على مايجب ، والذى فسرته أنت ووضعته خطأ ، تسألنى وأجيب ، ورفعت صوتى فسمع العامة فصاحتى، ونظروا إلى لكنته ، فقالوا : لو غلب الأصمعى سيبويه ، فسرنى ذلك ، فقال لى: إذا علمت أنت ياأصمعى مانزل بك منى لم ألتفت إلى قول هؤلاء ، ونفض يده فى وجهى ومضى . ثم قال الأصمعى : يابنى ، فوالله لقد نزل بى منه شىء وددت أنى لم أتكلم فى شىء من العلم . فأنت ترى أن لكنته سبب هزيمته.

ولقد كان لمناظرة سيبويه والكسائى أثرها فى نفس كثير من العلماء كانوا يؤمنون بصدق سيبويه ، وخطأ الأعراب الذين أخذ عنهم الكسائى ، ومن هؤلاء العلماء يحيى بن المبارك اليزيدى الذى قال حينما سمع استشهاد الكسائى بأعراب الحطمية ، وهى قرية على فرسخ من بغداد منسوبة إلى السرى بن الحطم أحد القواد :

كنا نقيس النحو فيما مضى   على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه   على لغى أشياخ قطربل

وقد علق المرحوم الأستاذ عبد الخالق على ذلك قائلا : إن الفساد الذى ينسب إلى الكسائى ربما كان واقعاً ، فان القرى التى يسكنها هؤلاء (الأعراب) كانت مرتعا للبطالين والخمارين ، وهى خليط من قوم لا يصح الاعتماد عليهم فى اللغة ، وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان مثل هذه الصفات ، هذا وإن أبا نواس قد شهر قطربل القريبة من بغداد بالخمر والخمارين .

ومن هؤلاء الذين ثاروا لهزيمة أستاذهم الأخفش الأوسط راوى كتاب سيبويه ، قال : « لما ناظر سيبويه الكسائى ورجع ، وجه إلى فعرفنى خبره معه ومضى إلى الأهواز ، فوردت بغداد ، فرأيت مسجد الكسائى ،فصليت

خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته وقعد، وبين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت ، وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها ، فأراد أصحابه الوثوب على فمنعهم ، ولم يقطعنى مارأيتهم عليه عما كنت فيه ، فلما فرغت قال لى : بالله ، أما أنت أبو الحسن سعيد ابن مسعدة ؟ قلت : نعم فقام إلى وعانقنى ، وأجلسنى إلى جنبه ، ثم قال : لى أولاد أحب أن يتأدبوا بك ، ويتخرجوا عليك ، وتكون معى غير مفارق لى فأجبته إلى ذلك ، فلما اتصلت الأيام بالاجتماع ... قرأ على كتاب سيبويه سراً ووهب لى سبعين ديناراً ، وهكذا استطاع الكسائى - ويظهر لى أنه كان دهية - أن يلوى الأخفش عن قصده ، وليس عليه فى ذلك من بأس بعد هزيمة رأس البصريين .

كان سيبويه يؤمل كبار الآمال على هذه الرحلة ، ويرجو أن ينصر البصرة على الكوفة ، وأن ينال المكانة التى يجد نفسه جديرا بها ، فما هو إلا أن وجد آماله تنهار أمام عينيه .

بانتصار الكسائى عليه، انتصاراً يعده سيبويه مختلسا فأزمع الرحلة عن بغداد. إلى أين يتجه ؟ أ إلى البصرة ، وقد حبط فيما كان يبنيه لها من المجد ؟أم إلى الكوفة ؟ وهو أعظم منافس لأساتذتها فضلا عن أنه لايثق بعلمائها ، ويرى أن مايستنبطون منه قواعدهم النحوية مكذوب مختلق ، أم يبقى فى بغداد التى شهدت أمله ينهار ؟ لا سبيل إلى شىء من ذلك ، فأزمع الرحلة إلى وطنه يقيم فيه عله يجد برد الراحة فيستريح . أزمع سيبويه الرحلة ، ولكنها رحلة المنطوى على الضغن ، رحلة الذى لاينسى أن له حقا فى الحياة والمجد لحيل بينه وبين مايشتهى

وفاته :

ويظهر أن الصدمة كانت شديدة عليه ، فلم يحتملها ولم يلبث أن مات غما بالذرب ، وهو فساد المعدة ، وأعجله الموت فلم يصل إلى بلده البيضاء بل وافاه الأجل فى شيراز أو بساوة بالقرب منها سنة ١٨٠ هجرية . ومما يدل

على أثر الصدمة فى نفس سيبويه أنه كان يتمثل عند موته قائلا :

يؤمل دنيا لتبقى له فمات المؤمل قبل الأمل

روى الأصمعى أن سيبويه مدفون بشيراز ، وأنه قرأ على قبره هذه الأبيات ، وهى لسليمان بن يزيد العدوى :

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ماتكون بقفرة لم يؤنسوك ، وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

وذلك هو ماأرجحه من تلك الروايات التى نجدها فى الكتب التى أرخت لسيبويه ، فابن نافع وحده يذكر أنه مات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائتين ، وهو قول لم يؤيده فيه أحد ، وغير معقول أيضا ، لأن سنه حينئذ لم تكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين بكثير ، وهو مالم يقله مؤرخ ، ويروى ابن خلكان غير متثبت أنه وصل إلى البيضاء ومات فيها ، ويروى ابن النديم أنه عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس ، وعودته إلى البصرة مشكوك فيها بعد هذا الاخفاق .

وتحديدنا سنة وفاته بمائة وثمانين تحديد ترجيحى كذلك ، وحسبى أن أذكر أن بعض الرواة يضعها سنة إحدى وستين ومائة ، وابن الجوزى يضعها سنة أربع وتسعين ومائة والفرق بين التاريخين ثلاث وثلاثون سنة ، أما سبب ترجيحنا فأن أكثر الرواة عليه ، ويرجحه ابن الأنبارى بدليل أنه مات قبل الكسائى والكسائى مات سنة ثلاث وستين ومائة .

كانت سن سيبويه عندما توفى تزيد على الأربعين، وعلى حسب ماحددناه تكون سنه زهاء خمس وأربعين سنة ، وهو المعقول بموازنة التواريخ، فليس بمعقول إذاً أن نقبل قول الأستاذ أحمد أمين الذى يضع تاريخ وفاته فى الثمانين بعد المائة ، ثم يقول : إنه مات ، وعمره نيف وثلاثون سنة ، لأننا قلنا إنه أخذ عن عيسى بن عمر الذى توفى سنة تسع وأربعين ومائة ، فيكون سيبويه حينئذ فى المهد صبيا .

أخلاقه ومواهبه :

كان سيبويه ذكيا ، متوقد الذكاء ، ذا عقل منطقى متزن يحسن التفريع والتعليل ا وكتابه خير دليل على ذلك . ثم هو طموح لم يرض بحطه فى البصرة وأنه أصبح شيخها ، بل أبى إلا أن يكون وحيد دهره لاعالم فوقه فى العالم الاسلامى ، وإلى جانب طموحه كان واثقا بنفسه تمام الثقة يؤمن بقدرته فى النحو قدرة فائقة . عن أبى عثمان المازنى ، قال حدثنى الأخفش قال : حضرت مجلس الخليل ، فجاءه سيبويه ، فسأله عن مسألته ، وفسرها له الخليل فلم أفهم ماقالا ، فقمت وجلست له فى الطريق ، فقلت له : جعلنى الله فداءك ، سألت الخليل عن مسألة فلم أفهم مارد عليك، ففهمنيه ،فأخبرنى بها ، فلم تقع لى ولا فهمتها ، فقلت له : لاتتوهم أنى أسألك إعناتا ، فانى لم أفهمها ولم تقع لى ، فقال له : ويلك ، ومتى توهمت أنى أتوهم أنك تعنتنى ، ثم زجرنى وتركنى ومضى ، وذهابه إلى بغداد وطلبه مناظرة الكسائى ،تدلنا على هذا الخلق الثابت فى نفسه ، ولكنه لم يكن مع ثقته بنفسه ، وطموحه من هؤلاء المتعجرفين الذين تمل عشرتهم ويكره قربهم ، بل كان محببا إلى نفس سامعيه ومجالسيه ، والروايات كثيرة تدل على ظرفه وكياسته حدث ابن النطاح قال : كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه ، فقال الخليل مرحبا بزائر لايمل . قال : وكان كثير المجالسة للخليل وماسمعت الخليل يقولها لغيره .

وكان إلى جانب ذلك — على مايظهر له — مفرط اليأس إذا يئس ، فلم يستطع أن يقاوم الصدمة التى منى بها عندما أخفق فى رحلته إلى بغداد،ولعله أراد أن يحارب اليأس الذى حل به . فقيل إنه سأل عن أمير له فى النحو أرب ؛ وخرج يريد بنى طاهر فى خراسان — كما يروى — ولكن الألم الذى حز فى نفسه لم يفارقه حتى مات .

هذا وقد تحدثنا عن لكنته فيما مضى وبينا أثرها فى إخفاقه فى المناظرات .

أسرته :

أتزوج سيبويه وكون بيتا ؟ أم وهب نفسه للعلم وكرس حياته له ؟ لايروى التاريخ شيئا يتعلق بذلك ، وأغلب الظن أن سيبويه عاش حياته كلها للعلم والتعليم ، ونستأنس لذلك بأن الروايات التى تتحدث عن وفاته ، وتصف لحظاته الأخيرة ، لاتتحدث عن زوجة ولا ولد ، وكل مايذكره التاريخ له من الأقارب أخ ، يظهر أن الحب والمودة كانت تربطهما أوثق رباط ، ولعل سيبويه لم يكن له أخ سواه . قالوا : ولما اعتل سيبويه وضع رأسه فى حجر أخيه فبكى أخوه لما رآه لما به ، فقطرت من عينه قطرة على وجه سيبويه ، ففتح عينه فرآه يبكى فقال .

أخيين كنا فوق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ، ومن يأمن الدهرا

لم يترك سيبويه ذرية من بعده ، ولكنه ترك ذكرا مخلدا ، واسما سوف يبقى مابقيت اللغة العربية ، وما بقى دارس لهذه اللغة ، ولقد نال سيبويه فى حياته من الشهرة وذيوع الصيت مالم ينله قبله إلا أستاذه العظيم ، الخليل ابن أحمد ، بل لقد صار اسمه يذكر بجانب أستاذه كلما تحدث الناس عن أعظم علماء النحو ، ولم تقف شهرته عند العلماء ، بل لقد كان مشهورا كذلك بين جمهور الشعب يتأثرونه ويقلدونه ، حدث التاريخى عن المبرد عن الزوارى أبى زيد قال . قال رجل لسماك بالبصرة . بكم هذه السمكة ؟ قال بدرهمان ، فضحك الرجل ، فقال السماك . ويلك ، أنت أحمق ، سمعت سيبويه يقول ، ثمنها درهمان .

تلامذته :

ترك سيبويه من بعده تلاميذه ، وكان من أشهرهم أبو الحسن الأخفش الأوسط والناشىء ، وأبو على قطرب ، وترك كتابه العظيم الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

من أرخ لسيبويه

لم يدرس سيبويه إلى اليوم الدراسة التفصيلية التى يستحقها إمام ألف

أول كتاب وصل إلينا فى قواعد اللغة . وأقدم ترجمة اهتديت إليها لسيبويه فى كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وستين للهجرة ، وهى ترجمة موجزة تحدث فيها عن اسمه وبعض أساتذته وزملائه وتلامذته وكتابه ولم يحدد بالزمن سنى حياته ووفاته ولا مكان موته. وفى كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ خمس وثمانين وثلاثمائة ترجمة موجزة كذلك ، وتحدث فيها عما تقدم ، وأضاف إليه خبر رحلته إلى بغداد وحدد سنة وفاته .

كنا نطمع من هذين العالمين أن يشفيا غليلنا من سيبويه لقرب عهدهما به ولكن منهجهما فى التأليف وخطتهما التى اتبعاها فى الايجاز حرمتنا من معارف كثيرة كانا يستطيعان أن يقدماها إلينا .

وفى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية ، ترجمة لسيبويه ، نهج فيها المؤلف منهجه فى ذكر الروايات المختلفة بأسانيدها وفى هذه الترجمة بعض الطول وهى تحوى روايات متعارضة عن مصادر مختلفة .

وفى القرن السادس للهجرة كتب صاحب نزهة الألباء المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهو كوفى يتعصب للكوفيين ـ فصلا يشبه إلى حد كبير فصل الخطيب البغدادى ، ولم يبين وجه الصواب فى الخلاف بين سيبويه والكسائى ، ولكنه لم يستطع أن ينكر مواهب سيبويه ولا فضل كتابه . أما صاحب معجم الأدباء المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فقد عقد لسيبويه فصلا مطولا ، هو أطول ما كتب عن سيبويه إلى ذلك الحين ، وفيه عيوب التأليف فى تلك العصور فلا ترتيب ولا تبويب ، ولكنها روايات تجمع ، ينتقل فيها من موضوع إلى غيره بلا صلة ولا رباط ، وإن كانت له تحقيقات نافعة فى كثير من الأحيان، كتحقيق سن سيبويه عند وفاته كما تناول الحديث عن سيبويه فى مواضع شتى وفى هذا الكتاب نقل لرواية لم يمحصها وتركها كما رواها قال . نقلت من خط أبى سعد السمعانى و مما انتخبه من طبقات أهل فارس وشيراز، تأليف الجاحظ

أبى عبد الله محمد بن عبد العزيز الشيرازى القصار . بشير بن سعيد ، وقيل عمرو بن عثمان بن قنبر ، يكنى أبا بشر سيبويه النحوى، (أخذ) عن الخليل بن أحمد ، وهو من الحارث بن كعب ، مات وكان على مظالم فارس ، وقبره فى شيراز ، لم يزد فى ترجمته على هذا . وأقول أنا بدورى . إن ياقوت لم يزد عن أن نقل هذه الترجمة ولم يمحصها ، فهل ولى سيبويه مظالم فارس ؟ أستبعد ذلك ، إذ لم يرو غيره من المؤرخين نبأ كهذا ، والمترجم يخطىء حتى فى اسم سيبويه مما يجعل هذه الترجمة تافهة قليلة القيمة .

عن هذه الكتب الخمسة أخذ ابن خلكان الذى توفى سنة ٦٨١ هـ ، وقد عقد له فصلا موجزا ليس فيه من جديد سوى ضبط اسم سيبويه فى العربية والفارسية ، وأخذ السيوطى أيضا المتوفى سنة ٩١١ هـ فى كتابه بغية الرعاة ، وأخذ المحدثون من أمثال جورجى زيدان والرافعى والاسكندرى .

والأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الاسلام قد تناول بالحديث نشأة النحو والتأليف فيه ومدرسة البصرة والكوفة ، وتحدث حديثاً مجملا عن كتابه سيبويه وذكر أن دراسة الكتاب وتحليله يحتاجان إلى فصل مطول .

وقد عرف المستشرقون سيبويه وكتب عنه وعن مدرستى البصرة والكوفة وعن تلاميذه وأساتذته المستشرق Huart فى كتابه La Littérature arabe الأدب العربى وتحدث عنه وعن كتابه وحقق اسمه ، وترجم بعض فصول كتابه إلى الفرنسية المستشرق المعروف Silvestre De Sacy فى كتابه Anthologie Gra maticale arabe مختارات من قواعد اللغة العربية وذكر الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه أن المستشرق ديرنبورج طبع كتاب سيبويه فى مجلدين كبيرين فى ١٠٠٠ صفحة كبيرة ، عليها تعاليق مفيدة ومقدمة باللغة الفرنسية عن مسودات هذا الكتاب ومظانها وما قيل فيها ، وقد نقله

إلى الألمانية الدكتور ياهن وطبع فى برلين ، والآن يجدر بنا أن نزن كتاب سيبويه وأن ندرسه ونحلله لنعرف قيمته الحقيقية .

ب — كتاب سيبويه

موقف الأقدمين منه

قال الجاحظ . أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، ففكرت فى شيء أهديه له ، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه ، وقلت له أردت أن أهدى لك شيئاً ، ففكرت ، فاذا كل شيء عندك ، فلم أر أشرف من هذا الكتاب ، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفراء، قال .والله ما أهديت إلى شيئا أحب إلى منه .

وذكر صاعد بن أحمد الجيانى من أهل الأندلس فى كتابه قال . لا أعرف كتابا ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب . أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى كتاب أرسطاطاليس فى علم المنطق ، والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا مالا خطر له .

وقال السيرافي . كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علما عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه وقرأ نصف الكتاب ولا يشك أنه كتاب سيبويه . وكان محمد بن يزيد المبرد إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له . هل ركبت البحر تعظيما له واستصعابا لما فيه .

وكان المازنى يقول من أراد أن يعمل كتابا كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستح .

وقال الزمخشرى فى هذا الكتاب .

ألا صلى الاله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنـــه بنو قلم ولا أبناء منـــبر

تلك كانت نظرة الأقدمين إلى كتاب سيبويه نظرة التقدير والتعظيم ، ولم يقتصر اجلال الكتاب على المعجبين بسيبويه بل كان خصومه فى تقديره والانتفاع به كالمحبين . حدث الأخفش ـ كما سبق أن روينا ـ أنه قرأ كتاب سيبويه على الكسائى فى جمعه ، فوهب له سبعين دينارا ، قال وكان الكسائى يقول له . هذا الحرف لم أسمعه فاكتبه لى فأفعل » .

قيل ، فكأن الجاحظ سمع هذا الخبر ، فقال مما يعدده من فخر أهل البصرة على أهل الكوفة :وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان ، وبسيبويه الذى اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله ؟

وحدث أبو الطيب اللغوى عن أبى عمر الزاهد قال . قال ثعلب يوما فى مجلسه . مات الفراء (وهو كوفى كما نعلم) . وتحت رأسه كتاب سيبويه .

والآن لكى نستكمل البحث نرى أن ندرس النقط الآتية .

١ ـ متى ألف سيبويه كتابه ؟ ٢ - متى ظهر الكتاب للجمهور ؟ ٣ ـ من روى هذا الكتاب ؟ ٤ ـ ثم ندرس خطة المؤلف وأسلوب عرضه ٥ ـ ونبحث بعد ذلك مصادر الكتاب ، وشخصية المؤلف ، وأثر الكتاب فى دراسة النحو ، وآراء منتقديه ، ٦ ـ ونختم البحث برأينا فى الكتاب .

متى ألف سيبويه كتابه ؟

تاريخ تأليف هذا الكتاب مجهول كل الجهل ، ولم تذكر كتب التاريخ أن الكتاب ظهر فى حياة مؤلفه ، فالسيرافى والمؤرخون من بعده قد ذكروا أن الكتاب لم يظهر فى حياة سيبويه ، ولكنه ظهر بعد وفاته ، والذى نقله عنه ورواه للجمهور تلميذه الأخفش ، قال السيرافى : والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفش ، وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه ، ولا قرأه عليه سيبويه ، ولكنه لما مات سيبويه قرىء الكتاب على أبى الحسن الأخفش ، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر والجرمى ، وأبو عثمان المازنى . وقال

ياقوت فى معجمه : وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كل الاستحسان ، فتوهم الجرمى والمازنى أن الأخفش قد هم أن يدعى الكتاب لنفسه ، فتشاورا فى منع الأخفش من ادعائه ، فقالا : نقرؤه عليه ، فاذا قرأناه عليه أظهرناه ، وأشعنا أنه لسيبويه ، فلا يمكنه أن يدعيه ، فأرغبا الأخفش وبذلا له شيئاً من المال على أن يقرأاه عليه ، فأجاب ، وشرعا فى القراءة ، وأخذا الكتاب عنه ، وأظهراه للناس .

وتلك قصة تدل على أن الأخفش هو الراوى الوحيد لكتاب سيبويه ، ويفهم منها أن كثيراً من الناس كان يعلم بتأليف سيبويه للكتاب ، بل أرجح أن بعض أجزاء الكتاب كان معروفا للجمهور ، وكذلك بعض ما استشهد به سيبويه من الشعر بدليل ما ذكرناه من أن الأصمعى وجه هذا الشعر توجيها غير توجيه سيبويه ، واضطر سيبويه إلى مناظرته كما ذكرنا ، وإذاً فالذى كان مجهولا هو الكتاب كاملا ، أما بعضه فكان معروفا عند الجمهور ، ولو أن أمر الكتاب كان مجهولا بالكلية ، ولم يكن يعلم أحد أن سيبويه قد ألف كتاباً لكان من الميسور الشك فى نسبته إلى مؤلفه من ناحية ، وهو ما لم يروه مؤرخ ، بل الإجماع منعقد على أن هذا الكتاب لسيبويه ، ومن ناحية أخرى كان من الميسور على الأخفش أن يستلحق الكتاب وينسبه إلى نفسه ، وهو ما لم يستطع أن يفعله .

غير أن عدم ظهور الكتاب كاملا طول حياة المؤلف يجعل من حقنا أن نستنبط منه أن سيبويه ظل إلى آخر أيام حياته يراجع مؤلفه ، يزيد فيه وينقص ويقدم ويؤخر ، غير راض أن يظهره للجمهور إلا بعد أن يكون قد أرضى نفسه عنه ، فعاجلته المنية قبل أن يوفى على هذه الغاية ، ويؤيد هذا الاستنباط أيضاً أن الكتاب خال من مقدمة يضعها المؤلف فى رأس كتابه ليقدم بها الكتاب للجمهور ويذكر فيها غرضه وخطته ، وخال من خاتمة تنبيء بانتهاء المؤلف من فكرته بل إن المؤلف لم يضع لكتابه اسما يميزه كما

هو المألوف ، مما يدل على أن سيبويه قد مات من غير أن يضع الكتاب فى ثوبه النهائى .

والذى يلوح له أن سيبويه قد استغرق فى تأليف كتابه وقتاً طويلا ، وأنه قد بدأه فى وقت مبكر ، فكان يقيد مايسمعه من أساتذته وما يراه فيما ألف قبله من الكتب ، ويجمع المتفرق ويؤلف من المتناثر مجموعا كاملا ، وربما كان يعرض ما يكتبه على الأخفش الذى كان تلميذه وفى الوقت نفسه أخذ النحو عمن أخذ سيبويه عنهم . وهنا نستبعد على رجل مثل الأخفش فى علمه ، وفى ثقة أستاذه به أن ينسب الكتاب إلى نفسه ، ولكنه وهم سبق إلى الجرمى والمازنى .

ويظهر لى أن الكتاب قد ظهر للجمهور بعد موت سيبويه بقليل ، فان يونس بن حبيب قد راجع الكتاب ، وأقر بصدق مارواه سيبويه عنه ، كما سبق أن ذكرنا ، ويونس قد مات بعـــد عامين من وفاة تلميذه . كما أن الكسائى الذى توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة قرأ الكتاب على الأخفش سرا ، كما روى الأخفش .

هذا ويروى الأستاذ Huart أن الأخفش قد عارض أستاذه فى بعض آرائه ، ولكنى لم أعثر فيما بين يدى من كتب على هذه الاعتراضات .

خطة المؤلف :

لكتاب سيبويه وحدة وغرض معين ، لأن موضوعه جمع القواعد النحوية والصرفية ، وهنا يحسن أن نشير إلى أن كتاب سيبويه لا يقتصر على ذكر قواعدالنحو فحسب ، بل شمل قواعد الصرف أيضاً ففيه ابواب لأوزان الكلمة ، وأنواع الاشتقاق المختلفة والتثنية والجمع والإعلال والإبدال ، والتصغير والنسب وغير ذلك من أبواب التصريف .

والكتاب مقسم إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة ، كل باب منها يعالج ناحية من نواحى القواعد ، وليس فى الكتاب مقدمة كما ذكرنا ، بل أوله فى صميم الموضوع إذ يتحدث عن أقسام الكلمة ، فيقول . هذا باب علم ما الكلم من

من العربية ، والكتاب جزءان . يحتوى الجزء الأول منهما عن الكلم وأقسامه ، والفاعل ، والمفعول ، وما يعمل عمل الفعل ، وإعمال المصدر ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة والحال والظرف والجر ، والتوابع ، والمعرفة والنكرة ، والمبتدأ والخبر ، والأسماء التى بمنزلة الفعل ، والأحرف المشبهة به ، والنداء ، والترخيم ، والنفى بلا ، والاستثناء ، وباب لكل من أحرف الجر ، وفى الجزء الثانى ماينصرف ومالا ينصرف ، والنسب والتصغير والمقصور والممدود ، والجمع ، والوقف ،والإعلال والإبدال ووزن الكلمات ولكن ترتيب الكتاب يخالف النهج الذى نتبعه ويتبعه المؤلفون المتأخرون فيما يأتى .

أولا . ترتيب أبواب الكتاب يخالف ماعهدناه من الترتيب فيما نتداوله من الكتب التى بين أيدينا ، فلا يأتى بالمرفوعات كلها على حدة ثم المنصوبات والمجرورات مثلا ، بل بعضها ممزوج ببعض كما رأينا ذلك وأنا أسرد أبواب الكتاب فينتقل من الفاعل إلى المفعول ثم بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر ، وهكذا .

ثانيا . لا يسير فى ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة فيقدم أبوابا من حقها أن تتأخر ويؤخر أبوابا من حقها أن تتقدم ، ويضع فصولا فى غير موضعها الطبيعى ، فهو يتحدث عن المسند اليه والمسند وكان من اللائق أن يستوفى أبواب المسند اليه من مبتدأ وفاعل وغيرهما ثم يعود إلى المسند ليستوفى أنواعه وأحكامه ولكنه لم يتبع ذلك ، وكثيراً ما تقول — وأنت تقرأ الكتاب — ليت ذلك الباب وضع هنا ، أوليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك .

ثالثا . يذكر سيبويه الباب العام ، ثم يعقد لكل مسألة من مسائله تقريبا بابا خاصا يعالجها ، فهو يعنون — مثلا — للتصغير ، ويذكر صيغه المختلفة ، ثم يعقد أبوابا للمسائل الجزئية فيه ، فتجد بابا لتصغير ما يكون على خمسة أحرف ، وآخر لتصغير المضاعف ، وبابا لتصغير ما كان على ثلاثة أحرف

ولحقته الزيادة للتأنيث ، وأبواباً أخرى لفروع التصغير المختلفة .

رابعا . يذكر مسائل فى أبواب نضعها نحن تحت عنوانات أخرى ، فمثلا هو يعد فى أبواب الفاعل بابا للفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعول ، وبابا آخر للفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعول ، وبابا ثالثا للفعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، بينما نحن الآن نضع ذلك تحت عنوان الفعل المتعدى واللازم .

خامسا . لايذكر دائما مسائل الباب الواحد سلسله متصلة متتابعة ، بل يذكر بعضها فى موضع وبعضها الآخر فى موضع ثان ، بعد أن يفصل بينهما فى كثير من الأحيان بأبواب أخرى ، وتذكرهذه المسائل لمناسبات تستدعيها .

سادسا . أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت بعد ، ومن أجل ذلك نجده يضع عناوين طويلة لأبواب ، وغالبا ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا ، فترى نفسك مضطراً إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها ، وقلما تجد عنوانا مفهوما لك فى هذا الكتاب ، وحسبك أن تعلم أنه وضع لإن وأخواتها هذا العنوان . هذا باب الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده ، وهى من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التى بمنزلة الفعل ولا تصرف تصرف الأفعال كما أن عشرين لا تصرف تصرف الأسماء التى أخذت من الفعل وكانت بمنزلته ، ولكن يقال بمنزلة الأسماء التى أخذت من الأفعال وشبهت بها فى هذا الموضع ، فنصبت درهما لانه ليس من نعتها ولا هى مضافة اليه ، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حمل العشرون عليه ، ولكنه واحد بين به العدد فعملت فيه كعمل الضارب فى زيد إذا قلت هذا ضارب زيدا ، لان زيدا ليس من صفة الضارب ولا محمولا على ما حمل عليه الضارب ، وكذلك هذه الحروف منزلتها من الافعال ، وبعدذلك كله يقول . وهى إن ولكن وليت ولعل وكأن. ويضع عنوانا لباب كان وأخواتها قوله . هذا باب الفاعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد .

ويضع عنوانا للمفعول لاجله قوله . هذا باب ماينتصب من المصادر لانه عذر .

ويدلنا على أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرت أنه لم يضع لاسماء الاشارة اسما ، بل دعاها الاسماء المبهمة ، كما كان يدعو التسكين جزما فيقول وجزمت لدنه ، ويسمى المقصور منقوصا ، وغير ذلك كثير .

سابعا . يذكر القاعدة وأمثلتها ، ويمزج ذلك بالتعليلات المنطقية ، وبيان وجه القياس فيما يذكره من القواعد ، وعرض الآراء المختلفة فى الموضوع الواحد.

ثامنا . يفرض فروضا يضع لها أحكاما فيقول مثلا (ص ٣ / ٢) ولو جاء فى الكلام شيء نحو أكلل وأيقق فسميت به رجلا صرفته لانه لو كان أفعل لم يكن الحرف الاول إلا ساكنا مدغما .

تاسعاً . لم تكن الابواب قد تميز بعضها من بعض التميز الكافى ، ويدلنا على ذلك باب التمييز وباب التعجب مما لم يتحدد معالمه التحدد الواضح فى كتاب سيبويه .

دراسة باب من أبواب الكتاب

ولعل من الخير أن ندرس بابا من أبواب الكتاب لنرى فى صورة أوضح منهج الكتاب فى التأليف وطريقته فى تناول مسائل النحو ، ولنأخذ باب الحال لنرى الفرق بين تناول سيبويه له وتناول المحدثين

لم يضع سيبويه عنوانا للحال ثم يذكر أحكامه المختلفة كما نرى ذلك مثلا عندما نأخذ كتابا كالتوضح . بل ذكر أحكام الحال موزعة فى نواح شتى ، وأول ماذكر باب الحال فى كتاب سيبويه كان بين أبواب المفعول وعنون له سيبويه بقوله ، هذا باب مايعمل فيه العمل ، فينتصب وهو حال وقع فيه الفعل وليس بمفعول . وفى هذا الفصل أوضح سيبويه لم لا يجوز أن يعرب الحال مفعولا . وبعد أبواب عدة تحدث فيها سيبويه عن كان وأخواتها وظن وأخواتها والتنازع والاشتغال وإعمال اسم الفاعل والمصدر والصفة المشبهة ، والمفعول المطلق وشيء من التمييز والتحذير والمفعول معه ، وعاد إلى المفعول

المطلق عرض بين أبوابه بابين من أبواب الحال ، عنون لأحدهما بقوله . هذا باب ماينتصب من الأسماء انتصاب الفعل استفهمت أو لم تستفهم : وذكر تحت هذا العنوان حكم الحال عندما يكون عامله محذوفا ، وذلك مثل قولك . أقائما وقد قد الناس ، وقدر سيبويه أن العامل فيه فعل من لفظه كأنه يقول : أتقوم قائما ، قال السيرافى . وأنكره بعض الناس لأن لفظ الفعل لا يكاد يعمل فى اسم الفاعل الذى من لفظه ، قال المبرد . والقول عندى ماقاله سيبويه ، لأنه قد تكون الحال توكيدا كما يكون المصدر توكيدا . وعنون للباب الثانى بقوله ، وهذا باب ماجرى من الأسماء التى لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التى أخذت من الفعل ، وذكر فى هذا الباب مايكون عامل الحال فيه محذوفا وليس من لفظه وذلك مثل قولك : أتميميا مرة وقيسيا أخرى ، أى أتدعى أو أتتحول وإنما ذكر هذين البابين بين أبواب المفعول المطلق لمشابهتهما له فى أن عامله أحيانا يكون محذوفا كقول جرير : ألؤما لا أبالك واغترابا ، أى أتلؤم لؤما وتغترب اغترابا ثم عاد بعد ذلك إلى المفعول المطلق فى أبواب كثيرة ، وانتقل إلى المفعول لأجله ، ثم عاد إلى باب الحال ، فذكر فى أبواب شتى المصادر التى تعرب حالا سواء كانت نكرة أو معرفة ، والأسماء التى تعرب كالمصادر أحوالا مع أنها معرفة . وذكر هذه الفصول من الحال فى هذا الموضع لأن الحال مصدر أو كالمصدر . وبعد أن ذكر بابا آخر فى المفعول المطلق عقد بابا فيه مسائل مشتركة بين الحال والمفعول ، ثم عاد بعد فصل آخر ليس من باب الحال إلى ذكر أبواب للحال الذى يقع جامدا ، مما يدل على مفاعلة ككلمته فاه إلى فى أو سعر ، والحال الذى يقع معرفته ، ثم انتقل إلى ظرف الزمان والمكان وباب الجر ، وباب النعت والعطف والبدل ثم عاد إلى باب الحال عندما يكون العامل فيه الابتداء مثل قولك : ماشأنك قائما ، وترك ذلك إلى النعت المقطوع وأطال فيه ، ثم عاد إلى باب الحال فذكر فصلا عندما يكون صاحبها خبر الاسم إشارة أو ضمير ، وفصلا آخر عندما يكون صاحبها معرفة ونكرة مثل

قولك : هذان رجلان وعبد الله منطلقين ، وبابا لما يصح أن يعرب حالا أو خبراً مثل هذا الرجل منطلق أو منطلقا ، وبابا لما يعرب حالا وكان فى الأصل خبراً مثل : فيها عبد الله قائما ، ثم ذكر شيئا من باب المعرفة والنكرة وعاد إلى أبوب أخرى من أبواب الحال . هذا إلى مسائل متناثرة منه هنا وهناك تذكر فى أبواب أخرى لمناسبة بينها وبين هذه الأبواب .

هذه صورة لباب من الأبواب التى تناولها الكتاب ، ذكرت مسائله موزعة فى أماكن شتى ، تبعاً للمناسبات التى تستدعيها ، ولكن من الواجب أن أشير إلى أنه ليس كل الأبواب فى الكتاب كباب الحال ، بل بعضها أفضل منه حظا فذكرت مسائلها متقاربة نوعا من التقارب ، كما كان بعضها أسوأ منه حظاً ، فعرضت مبعثرة متناثرة .

وعذر سيبويه فى ذلك كله أمران ، أولهما أن ترتيب أبواب النحو الترتيب النهائى لم يكن قد تم بعد ، وثانيهما مارجحناه من أن سيبويه لم يضع كتابه فى وضعه النهائى كما أسلفنا .

أسلوب الكتاب :

كتاب سيبويه كتاب موضوع للعلماء ، وهو من أجل ذلك موجز ، كل كلمة فيه موضوعة لمعنى ، فهو يشبه مع ضخامته - متنا من المتون ، ومن أجل ذلك وضع عليه العلماء كثيرا من الشروح ، وقد يستغرب أن أقول : إنه مع الايجاز يلتزم جانب التفصيل والتوضيح لما يتناوله حتى يستوفيه ، ولكن لامحل للغرابة إذا ذكرنا أنه مع التفصيل يلتزم جانب الايجاز أيضاً والذى ساعده على التفصيل تجزئة الموضوع إلى أبواب كثيرة يستوفى فى كل باب منها مسألة يذكر قاعدتها وأمثلتها ويفرعها ويفرض فروضا يضع لها أحكاما ، ويذكر فيها الآراء المختلفة .

وهذا الايجاز الذى تحدثت عنه يسبب فى أحيان كثيرة غموضا وإبهاما

والتواء مما يحتاج إلى إعمال الروية والتأنى فى فهم غرض المؤلف ، ولست أرمى إلى أن الكتاب غامض غير مفهوم بل أريد أن أثبت أن الغموض واقع فى بعض الفصول ، ولكنه فى الأغلب واضح ، غير أنك لاتستطيع مع ذلك أن تقرأه إلا وأنت متريث على سهل ، وأسلوب الكتاب يرمى إلى التفهيم لا التأثير ، ومع ذلك لا أستطيع أن أخفى ضعف الابانية فى كثيرمن صفحات الكتاب .

مصادر الكتاب :

وبعد فمن المستبعد أن يظهر كتاب شامل فى النحو والصرف ككتاب سيبويه من غير أن يكون قد سبقته محاولات اقتبس منها ، وسار على هداها وهم يقولون لذلك إن سيبويه قد اقتبس ممن سبقه ولا سيما عيسى بن عمر الثقفى الذى ألف كتابين فى هذه المادة سماهما الاكمال والجامع ، ويروون أن الخليل قال فيهما :

ذهب النحو جميعاً كله غيرما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

غير أن هذين الكتابين لم يبقيا ، وعفى على آثارهما كتاب سيبويه ، ويظهر لى أنه من الحق أن نعد كتاب سيبويه ثمرة لكل الجهود التى قام بها العلماء والمؤلفون منذ بدأ أبو الأسود هذا النحو ، فجمع سيبويه ماتفرق فى كتبهم ، وما استشهدوا به من شعر ، ورتبه ونظمه ، وأضاف إليه ماسمعه بنفسه .

وهكذا يجب أن نفهم ماقاله ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل ، فليس معناه أن واحدا وأربعين إنسانا اشتركوا مع سيبويه فى تأليف كتابه ، ولكن معناه أن سيبويه قد انتفع بعلم من سبقه وقد كانوا كثرا ، وبنتائج أبحاثهم .

أما هذه الرواية التي نقلها ابن خلكان فى ترجمة عيسى بن عمر حين قال:

وأخذ سيبويه عنه النحو ، وله الكتاب الذى سماه الجامع فى النحو ، ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل بالبحث والتحشية نسب إليه وهو كتاب سيبويه المشهور ، قال ابن خلكان : والذى يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور ، ولازم الخليل بن أحمد سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : صنف نيفا وسبعين مصنفا فى النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها وأتت عندة عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين : أحدهما اسمه الاكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر الجامع ، وهو هذا الكتاب الذى اشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد : ذهب النحو ... الخ . أما هذه الرواية فمنقوضة لا أساس لها من الصحة فيما أرى ، وهى أقرب إلى التأليف منها إلى الحق والصواب فغريب ألا توجد من مؤلفات عيسى سوى نسخة واحدة عند هذا الثرى ، وغريب أيضا أن تأتى الآفة على جميع كتبه غير هذين الكتابين ، هذا إلى أننى أستبعد على الخليل بن أحمد ، ومنزلته فى النحو منزلته ألا يكون قد اطلع على أهم ماخلفه عيسى بن عمر ، وأستبعد عليه ، وهو الرجل الذى يزن كلامه بميزان الذهب أن يتحدث عن كتابين لم يرهما هذا الحديث الملىء بالاكبار والاعجاب ، واستبعد عليه أيضا أن يظل جاهلا أنه تلميذه يقرأ عليه كتاب الجامع ليشرحه ويحشوه ، هذا وكتاب سيبويه ليس فيه مايدل على أن أصله متن وشرح ، ولكنه كتاب وضع وضعا ابتدائيا كذلك . وليس معنى هذا أنه لم ينتفع بكتابى عيسى ، بن عمر ، بل قد انتفع بهما وبغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن كل مؤلف محترم حتى عصرنا الحاضر — يريد أن يضع كتابا قيما ، فمن المحتم عليه ان يرجع إلى ماسبقه من الكتب يستفيد بنتائجها وتجاربها ، ولا يعد ذلك عيبا فى المؤلف أو نقصا فى كتابه ، بل إنه ليعد ناقصا مقصراً إذا لم يرجع إلى الكتب المؤلفة قبله

استفاد سيبويه ومن حقه أن يستفيد من الكتب السابقة ، ونقل أيضا عن أساتذته الذين تحدثنا عنهم فيما مضى ، وكلهم من البصريين ، ولم يأخذ إلا عن الرؤاسى من الكوفيين ناقلاعن كتابه الذى سماه الفيصل - كما ذكر ذلك ياقوت - وأكثر من روى عنه الخليل بن أحمد . وإن سيبويه ليقف منه فى الكتاب موقف التلميذ من أستاذه ، يسأله عن الأحكام والعلل وفروق القياس ، ويثبت إجابة الخليل ، بل لقد نقل إلينا فى فصل من فصول الكتاب درسا من دروسه ، فقد عقد بابا عنوانه : هذا باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد « ص ٦١ حـ ٢ » قال : قال الخليل يوما وسأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التى فى لك والكاف التى فى مالك والباء التى فى ضرب ؟ فقيل له : نقول باء ، كاف ، فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف ، وقال : أقول : كه وبه ، فقلنا : لم ألحقت الهاء فقال - وهنا أوجه النظر إلى مثل من أمثلة القياس الذى كان يستخدمه الخليل - قال : رأيتهم قالوا : عه ، فألحقوا هاء حتى صيروها يستطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف « فان وصلت قلت ، ، وبـ ، فاعلم يافتى ، كما قالوا : ع يافتى . ويمضى سيبويه بعد ذلك ناقلا أسئلة الخليل وأجوبته وأجوبة تلاميذه ونستطيع أن نأخذ من ذلك صورة لسير الدروس فى ذلك الحين فقد كانت تسير على طريقة المناقشة لا الالقاء .

ونقل سيبويه كثيراً عن يونس أيضاً حتى لقد ينقل عنه أبوابا برمتها ففى الكتاب فصلان فى التصغير نقلهما عنه وقال : وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب وما أذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس . كما كان يروى عن أبى الخطاب الأخفش الكبير . ويقول حدثنى من أثق بعربيته ، ويريد : أبا زيد ، كما سبق أن ذكرنا ، ويحكى أقوال أبى عمرو بن العلاء ويوازن بينها وبين قول الخليل ويونس ، وكان رائده الحق فلا يتعصب للخليل بل للصواب فنسمعه يقول أحياناً : وقول يونس أقوى ، وأحياناً يروى عن العرب مباشرة ويقول : إنه سمع منهم . وذلك كله يدل على سعة إطلاع سيبويه وتضلعه .

شخصية المؤلف :

استفاد سيبويه — ولا ريب — من الكتب المؤلفة قبله ، وأخذ عن أساتذته — كما ذكرنا — فهل أفنى كل ذلك شخصية المؤلف فأصبح جماعا ليس غير ؟

إن كتاب سيبويه لتطل منه شخصيته واضحة قوية فيما يأتى :

أولا : أسلوبه ، فالمعلومات قد يتلقاها المرء من هنا ومن هنا ، ولكن وضع هذه المعلومات فى أسلوب خاص وطريقة خاصة من طرق التعبير هو ما يميز شخصا من آخر . يقول Buffon فى حديثه عن الأسلوب : إن الموضوعات والمكشوفات تسرق بسهولة ، وتنتقل ، وتكتب أيضاً بأيد أكثر مهارة ، إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل ، أما الأسلوب فالرجل نفسه . وإذا فشخصية سيبويه واضحة كل الوضوح فى أسلوبه الذى صاغ به معلوماته التى أخذها من جميع المصادر المعروفة فى ذلك الحين .

ويقول بعض المؤرخين إن الكتاب معقود بلفظ الخليل ، وهو ما لا أوافق عليه ، فالكتاب بين أيدينا معقود بلفظ سيبويه ، وما نقله عن الخليل أو غيره نسبه اليه فى صراحة ، وقد تحدثنا عن أسلوب سيبويه فيما مضى .

ثانيا : تبويب الكتاب وتقسيمه وترتيبه ، وذلك من صنع سيبويه ، ولا نستطيع أن نعرف إلى أى مدى استفاد من تبويب الكتب السابقة ، لأنها لم تصل إلينا .

ثالثا : الاستنباط وحسن التعليل والبرهنة والتفريع ، وحظ سيبويه من ذلك حظ غير يسير ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من استنباط يسوقه ، أو تعليل يأتى به ، أو برهان يقدمه ، أو تفريع يذكر أحكامه المختلفة ، مما يدل على عبقرية ممتازة وشخصية قوية لا تكتفى بالنقل والتقليد .

شخصية سيبويه واضحة إذاً فى كتابه كل الوضوح ، فالكتاب كتاب سيبويه ، كتبه بقلمه ، وصاغ أسلوبه بفكره ، واشترك فيما فيه من استنباط

وتعليل وبرهنة وتفريع ، وهل يعظم الخليل سيبويه إلا إذا كان قد رآه آخذاً طريقته مجيداً للتعليل والقياس والتفريع .

شواهد الكتاب :

للكتاب مصدران من الشواهد هما القرآن الكريم ، وكلام العرب ، وأشعارهم ، وأمثالهم وحكمهم ، وفى هذا العصر القديم احتاج العلماء إلى شعر العرب يستنبطون منه قواعدهم ، ويثبتون به آراءهم ، وكانوا يستشهدون على ذلك بأشعار الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين ، ثم اختلفوا فى الإسلاميين كجرير والفرزدق ، والأكثر على جواز الاستشهاد بأشعارهم ، وكان أبو عمرو ابن العلاء وعبدالله بن أبى إسحق والحسن البصرى يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة ومن على شاكلتهم ويعدونهم من المولدين الذين لا يجوز الاستشهاد بكلامهم ، وقد كان بين ابن أبى إسحق وبين الفرزدق خصومة ونزاع ، فقد سمع الفرزدق يقول :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فرأى أن مجلف فى رفعها لا تناسب مسحتا فى نصبها فاعترض على الفرزدق ، فهجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فاعترض ابن أبى إسحق على قوله مولى مواليا أيضاً ، وقال : بل هو مولى موال ، وسمع قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا تلقى وأرحلنا على زواحف تزجى ،مخها رير(١)

فقال ابن أبى إسحق إنما هو رير ، وخالفه يونس ، فقال إن ماقاله الفرزدق جائز حسن ، فلما ألحوا على الفرزدق قال : زواحف تزجيها محاسير .

ولكن الثقات مجمعون على أن الاستشهاد بالشعراء جائز به وبطبقته ،

---

(١) مخ رار ورير أى ذائب فاسد من الهزال .

وبمن جاء بعده من المحدثين الذين ينتسبون فى العرب ، ولم يتجاوز الثقات بهم مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية : روى ابن قتيبة عن الأصمعى أنه قال : ساقة الشعراء ابن ميادة (سنة ١٤٩) وابن هرمة ورؤبة(سنة ١٤٥) وحكم الخضرى وجميعهم من مخضرمى الدولتين :الأموية والعباسية .

هذا ، وقد كان البصريون يجتهدون - كما ذكرنا - فى أن يتعرفوا قائل الشعر ، وخلوص عربيته ، ولا يأخذون شواهدهم إلا من العرب الخلص الذين لم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأعاجم ، وهم يتثبتون قبل أن يستنبطوا أما الكوفيون فليس لهم مالهؤلاء من التدقيق والتحقيق .

وقد بذل سيبويه جهده فى تخير شواهد كتابه ، وأخذ هذه الشواهد عن الجاهلية كزهير والنابغة ، والمخضرمين كحسان والحطيئة ، وشعراء الأمويين كجرير والفرزدق والكميت وابن أبى ربيعة ، وابن قيس الرقيات ، وجميل والأخطل ، وأخـــذ عمن قال الثقات : إن شعرهم آخر شعر يحتج به وهم ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة بن العجاج ، فكان موقفه من هؤلاء الإسلاميين غير موقف أبى عمرو بن العلاء وصحبه . ولست أدرى رأى سيبويه فى بيت الفرزدق : مستقبلين شمال الشام . . ولعله يوافق رأى أستاذه يونس ، من جوازه واستحسانه ، ولا رأيه فى البيت الأول : وعضّ زمان ... أما رأيه فى البيت الثانى ، فقد ذكره فى الجزء الثانى من كتابه (ص ٥٨) وبين أن الخليل قد خرجه على الضرورة الشعرية التى تحفظ ولا يقاس عليها .

أما موقف سيبويه من بشار فلم يستشهد بشعره فى كتابه ، وروى أن سيبويه طعن على بشار فى قوله .

فالآن أقصر عن سمية باطلى وأشار بالوجلى على مشير

وفى قوله .

على الغزلى منى السلام فربما لهوت بها فى ظل مرءومة زهر

وفى قوله يصف سفينة .

تلاعب نينان البحور ، وربمـــا رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال لم يسمع من الوجل والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونينان ، فبلغ ذلك بشارا ، فغضب وهجاه - وكلنا يعلم مرارة لسان بشار - بقوله .

أسبويه يابن الفـــارسية ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ ؟!

أظلت تغنى سادرا فى مساءتى وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ !

وأى هجاء أبلغ من حذف المفعول فى الفعلين . تعطى وتأخذ ، فيقال إن سيبويه توقاه بعد ذلك ، وكان إذا سئل عن شىء فأجاب عنه ، ووجد له شاهداً من شعر بشار ، احتج به استكفافا لشره ، ولعل بشارا أراد أن يحاسن سيبويه بعد أن أصبح يحتج بشعره فغير نينان البحور ، وجعلها تيار البحور .

هذا ، وأما جمع نون على نينان فقد أثبته صاحب القاموس واللسان ، وحكى السيد المرتضى فى شرح القاموس تخطئة سيبويه لبشار ، ثم قال . واستعمله المتنبي ، وغلطوه أيضاً .

تثبت سيبويه فى اختيار شواهد كتابه حتى ليقال . إنها أصح شواهد ، وقد انتقد بعضهم بعض شواهده ، فالمبرد فى كامله يقول . وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين المفتشين يجيز مثل هذا فى الضرورة ، والبيت الأول هو .

هم القائلون الخير والآمرونه إذا ماخشوا يوما من الأمر معظما

والثانى .

ولم يرتفق والناس محتضرونه جميعا ، وأيدى المعتفين رواهقه

والبيتان مذكوران فى الجزء الأول من كتاب سيبويه فى باب إعمال اسم الفاعل ، وقد رجعت اليهما . فوجدت سيبويه يقول . واعلم أن حذف النون والتنوين لازم مع علامة المضمر غير المنفصل ... وقد جاء فى الشعر

فزعموا أنه مصنوع ، ثم أورد البيتين المذكورين ، فسيبويه يخبر كذلك أنهما مصنوعان فلا وجه لاعتراض المبرد عليه .

وروى أيضاً أن سيبويه سأل اللاحق . هل تحفظ للعرب شاهدا على إعمال فعل ؟ قال اللاحقى . فوضعت له هذا البيت .

حذر أمورا لا تضير ، وآمن ما ليس منجيه من الأعداء

وقد رجعت إلى كتاب سيبويه ، فلم أجد هذه القصة، ولكنه أورد البيت شاهدا على إعمال فعل . وقد علق الأعلم الشنتمرى بعد أن ذكر قول من زعم صناعة هذا البيت بقوله : وإن كان هذا صحيحا فلا يضر ذلك سيبويه لأن القياس يعضده . وقد ألفيت فى بعض ما رأيت لزيد الخيل بن مهلهل الطائى بيتاً فى تعدى فعل وهو قوله :

أتانى أنهم مزقون عرضى جحاش الكرملين لها فديد

فقال : مزقون عرضى كما ترى ، وأجراه مجرى ممزقين ، وهذا لا يحتمل غير هذا التأويل فقد ثبت صحة القياس بهذا الشاهد القاطع .

وأقول بدورى : إن ذلك لن يكون مطعنا فى شواهد سيبويه التى يبلغ عددها ألفاً وخمسين بيتاً ، حدث التاريخى عن المبرد عن المازنى عن الجرمى قال : فى كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتاً سألت عنها فعرف ألف ولم تعرف خمسون أى من قائليها ، وذكر الأستاذ الرافعى فى هامش كتابه أن المرحوم الشنقيطى ذكر فى حاشيته المطبوعة أنه علم واحداً من هذه الخمسين وهو قول القائل : أفبعد كندة تمدحن قبيلا ، فقال إنه لامرىء القيس . ولكنى رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدت هذا الشطر بالجزء الثانى (ص ١٥١) فى باب نون التوكيد منسوبا إلى شاعر يسمى (مقنعا) ، ولعل الأستاذ الشنقيطى نسبه إلى امرىء القيس لما فيه من مدح كندة قبيلة الشاعر ، وذكر الأستاذ الرافعى رأيه فقال : والصحيح أن تلك الأبيات التى منها هذا الشطر موضوعة على امرىء القيس لنزولها عن طبقته ، وظهور الصنعة والتوليد فيها .

هذا وقد كان استشهاد سيبويه فى كتابه بآيات من القرآن الكريم مدعاة إلى تحرج بعض العلماء أن يدرس الكتاب لغير المسلمين ، قال صاحب كتاب الوافى بالوفيات : وكان المازنى فى غاية الورع ، قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار فى تدريسه إياه فامتنع ، فقال له المبرد : جعلت فداك ! أترد هذه المنفعة ، مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟ افقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عزوجل، ولست أرى أن أمكن منها ذمياً ، وغيرة على كتاب الله وحمية له .

الكتاب ودراسة النحو .

أصبح كتاب سيبويه بعد أن ظهر للناس برنامجاً لمن أراد الدراسة العليا فى النحو ، وأصبح الطالب لا يعد مستكملا هذا النوع من الدراسة إلا إذا قرأ كتاب سيبويه ، وصار اسم الكتاب يطلق عليه ، ويفتخر الطلبة بأنهم قرءوه ، وممن باهى بذلك أبو نواس وغيره من شعراء العصر ، وقد ذكرت فيما مضى مغالاة الناس بهذا الكتاب ، وحرصهم على دراسته سواء أكانوا من محبي سيبويه أم من خصومه ، ومن هؤلاء الأعلام الذين درسوا كتاب سيبويه فى تلك العصور الأولى غير من ذكرناه فيما سبق ـ الجرمى والزيادى والسجستانى وأبو العباس المبرد وغيرهم ، ولم يكن يحسب العالم عالما فى النحو إلا إذا درس كتاب سيبويه كله ، قال أبو على الفارسى ، جئت لأسمع من ابن السراج كتاب سيبويه وحملت إليه ما حملت ، فلما انتصف الكتاب عسر على إتمامه ، فانقطعت عنه لتمكنى من مسائله ، فقلت فى نفسى بعد مدة : إذا عدت إلى فارس ، وسئلت عن اتمامه فان قلت نعم ، كذبت ؛ وإن قلت لا ، بطلت الراوية .

العناية بالكتاب .

وكان كتاب سيبويه منذ تأليفه موضعاً لمراجعة العلماء ، منهم من يشرحه ومنهم من ينظم ترتيب أبوابه ، ومن هؤلاء ابن السراج الذى ألف كتاب

الأصول ، وقد جمع فيه أصول علم العربية ، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب كما أنه شرح كتاب سيبويه .

وممن شرح كتاب سيبويه أيضا سعيد بن المرزبان ، والأخفش الصغير وأبو سعيد السيرافى كما قام بشرح شواهده يوسف بن سليمان الشنتمرى .

ولم يقف كتاب سيبويه عند حدود المشرق بل جاز البحر إلى بلاد الأندلس ، وقد عقد الأستاذ الرافعى فى كتابه تاريخ آداب العرب فصلا تحدث فيه عن كتاب سيبويه فى الأندلس : فذكر أن أقدم ما وقف عليه ممن حفظ كتاب سيبويه هناك هو حمدون النحوى ، المتوفى بعد المائتين ، ثم ذكر من شهر بحفظ الكتاب وتدريسه وشرحه والتعليق عليه ، مما يدل على ما لاقاه هذا الكتاب فى الأندلس من الاجلال وحسن التقدير تقديراً لا يقل عن تقدير أهل المشرق له إن لم يزد حتى كانوا يتنافسون فى حفظه عن ظهر قلب ، وقد قام بعضهم باختصاره للطلبه المبتدئين ، ومن أشهرهم أبو حيان فى القرن الثامن .

ما أخذه العلماء على سيبويه .

قال ثعلب : « يقول سيبويه فى كتابه فى غير نسخة : حاشا حرف يخفض ما بعده ، كما تخفض حتى ، وفيها معنى الاستثناء » ، وقد رد عليه الزجاج بأن ذلك فى كتابه ، وهو صحيح ذهب فى التذكير إلى الحرف وفى التأنيث إلى الكلمة . قال ثعلب : والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد فرد عليه الزجاج بأن كلا جيد ، قال الله تعالى : ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً ، وقرىء وتعمل صالحاً . وقال عز وجل ، ومنهم من يستمعون إليك ، ذهب إلى المعنى ، ثم قال : « ومنهم من ينظر إليك » ذهب إلى اللفظ وليس لقائل أن يقول : لو حمل الكلام على وجه واحد فى الاثنين كان أجود ، لأن كلا جيد .

أما الفراء فكان يقول : إن سيبويه لا يدرى حد التعجب ، ولقد رجعت

إلى الكتاب فلم أجد سيبويه قد استوفى حقا أبواب التعجب وفروعه المختلفة

وأما المبرد فيقول الأستاذ الرافعي : إنه أفرد كتابا فى القدح فى كتاب سيبويه والغض منه ، ولم أطلع على هذا الكتاب الذى وضعه المبرد . ولم أعرف النقط التى خالفه فيها ولكن ياقوت فى معجمه ذكر أن عبيد الله القصرى ألف كتاباً سماه الانتصار لسيبويه على أبى العباس فى كتاب الغلط .

وذكر الأستاذ جورجى زيدان أن أبا بكر الزبيدى ألف كتاباً سماه كتاب الاستدراك على كتاب سيبويه انتقد فيه مواد هامة ، وطبع فى روما سنة ١٨٩٠ بعناية الأستاذ جويدى المستشرق الايطالى .

رأينا فى الكتاب .

١ - الكتاب فى نظرنا مرجع من المراجع نعود إليه عندما نؤلف كتابا فى القواعد العربية .

٢ - وهو صورة لآخر ما وصل إليه التقدم العلمى فى النحو فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، لأن الكتاب كما قلنا ثمرة لهذه الجهود المتصلة فى تلك المادة منذ بدأها أبو الأسود .

٣ - وهو صورة أيضا لما كانت عليه دراسة النحو فى ذلك الحين من التعليل والقياس والاستنباط والتفريع واستيعاب الفروض .

٤ - وفى رأيى كذلك أن كتاب سيبويه كان الكتاب الأول والأخير فى النحو ، فالكتاب سجل لقواعد النحو ، وقف العلماء عندها ، ولم يزيدوا عليها ، وكل من جاء بعده جعل الكتاب أساس دراسته ووقف عند حد الشرح أو الاختصار ، ولم يزد المتأخرون على كتاب سيبويه إلا أن وضعوا الاصطلاحات التى كانت تنقصه كما ذكرنا - وإلا أن رتبوا أبواب القواعد ترتيبا جديداً ، فالطبقة التى تلت كتاب سيبويه كانت طبقة الشرح والتكميل والتنظيم ، ثم جاءت من بعدهم طبقة أخرى ، اكتفت بذكر القواعد من غير أن تقرنها بعللها وأسبابها وظل الأمر يتدرج حتى انتهى بهذه المختصرات

أو المتون التى احتاجت إلى شروح مطولة ، ثم احتاجت الشروح إلى حواش وتقريرات وجدت مصدرها فى كتاب سيبويه .

٥ – نقرأ كتاب سيبويه على أنه مرجع ومصدر ، أما أن نجعله أساس الدراسة مثلا فى عصرنا الحديث فلا ، لأننا بذلك نلقى تطور التأليف النحوى وما ناله هذا التأليف من التنظيم والتبويب منذ عصر سيبويه إلى وقتنا الحاضر .

ويا حبذا لو تضافرت الجهود ، واجتمعت القوى على إخراج كتاب فيه القواعد النحوية المبعثرة مجموعة منظمة ، واستخرجنا من كتب السالفين ما فيها من جواهر مستورة ، ووضعنا ذلك كله فى أسلوب جميل تزينه شواهد ممتازة ، ليكون عدة العالم فى عصرنا الحديث . إن كتابا كهذا يكون له من الأثر ما كان لكتاب سيبويه طوال هذه القرون المتعاقبة والله يهدى إلى سواء السبيل .

مراجع البحث

١ – كتاب سيبويه
٢ – أخبار النحويين البصريين للسيرافى .
٣ – الفهرست لابن النديم .
٤ – تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .
٥ – نزهة الألباء لابن الانبارى .
٦ – معجم الأدباء لياقوت .
٧ – وفيات الأعيان لابن خلكان .
٨ – بغية الوعاة للسيوطى .
٩ – كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .
١٠ – تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .
١١ – تاريخ آداب العرب للرافعى .
١٢ – تاريخ اللغة والآداب فى العصر العباسى للسكندرى .
١٣ – ضحى الاسلام لأحمد أمين .
١٤ – الأعلام لخير الدين الزركلى .
١٥ – إعجام الأعلام لمحمد مصطفى .
١٦ – كشف الظنون لحاج خليفة .
١٧ – La Littérature Arabe. Par Huart.
١٨ – Anthologie Gramaticale Arabe. Par S. De Sacy
١٩ – كتاب الاقتراح للسيوطى .

الأدب وتطوره

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

المدرس بكلية دار العلوم

معناه فى الجاهلية وصدر الإسلام . اشتقاق الكلمة . دلالتها الخلقية . مناقشة آراء فى اشتقاق المعنى الخلقى .

معناه فى العصر الأموى . دلالته الثقافية . اشتقاق المعنى الجديد .

معناه فى العصر العباسى الأول . اتساع الدلالة الثقافية .

معناه فى العصر العباسى الثانى . ضيق الدائرة الثقافية .

دلالة أخرى للكلمة أحيانا فى العصر العباسى .

— ١

دلت كلمة الأدب فى العصر الجاهلى على الدعاء للمأدبة ، فالآدب هو الداعى إلى المـآدب ، قال طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى   لا ترى الآدب فينا ينتقر

ثم توسعوا فى معناها فاشتقوا منها الأدب بمعنى الأخـــلاق الكريمة والسجايا النبيلة ، لأنه يأدب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين المعنيين صلة وثيقة ، لأن العرب يحيون فى بادية مقفرة شحيحة بالزاد ، فتمدحوا بالقِـرى ، وبالغوا فى الحفاوة بالضيف حتى تخرق فيها بعضهم ، فكان من الطبيعى أن ينتقلوا من معنى الأدب الحسى المادى إلى ذلكم المعنى النفسى الخلقى .

ولسنا نستطيع أن نحدد الوقت الذى نشأ فيه هـذا التجوز ، وإن كنا نجد فى العصر الجاهلى نصوصا تدل عليه ، منها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند

يصف لها خاطبها . وكان أبا سفيان ولم يسمه أبوها « يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، وردها عليه » وإن لآخذه بأدب البعد مع لزوم قبتى ، وقلة تلفتى » [1]

وفى جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى فى كلامه على المثل « ويل للشجى من الخلى » قوله : « المثل لأكثم بن صيفى ، وذلك أنه ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب له كتابا جاء فى رد المصطفى عليه قوله : « بآدابه المرسلين » ولعل أصل الجملة أدب أو بعث بآدابه المرسلين [2]

وقد ساير الكلمة مدلولها الخلقى إلى صدر الإسلام ، ومنه الحديث الشريف « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقول النبى عليه الصلاة والسلام « القرآن مأدبة الله فى الأرض » [3] وقول سيدنا عمر لابنه : « يابنى انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وقول على رضى الله عنه : « وأدبتكم بسوطى فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا » [4] وقوله : « قد لبس للحكمة جنتها ، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها ، والمعرفة بها ، والتفرغ لها [5] وقول حجر بن عدى الشهيد للامام على « ياأمير المؤمنين نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك »

ولكن بعض الباحثين لم يطمئنوا إلى اشتقاق الكلمة من الأدب بمعنى الدعاء إلى المآدب ، وعرضوا آراء لانقرهم عليها .

فالمستشرق الإيطالى الأستاذ نلينو يشتقها من الدأب بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة دأب جمعت على أدآب ثم قلب الجمع إلى آداب كما جمعت بئر ورئم على أبآر وأرآم ثم قلبت إلى آبار وآرام ، واشتقت كلمة أدب من الجمع آداب وهذا فرض ، وتكلف لانقره .

---

(١) الامالى ج ٢ ص ١٠٤ . (٢) جمهرة الامثال ص ٢٠٣ طبعة بمبى ، وبينهما وبين الطبعة التى على هامش أمثال الميدانى فروق (٣) لسان العرب مادة أدب (٤) شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ج ٢ ص ٥٣٦ تستوسقوا : تجتمعوا (٥) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٥

١ – لأن آبار وآرام لم يشتق منهما مفرد أن تكون الصلة بينهما وبين بئر ورئم كالصلة بين أدب ودأب فى الحروف والمعنى .

٢ – لم يذكر شبيها لهذا الاشتقاق فى اسم معنى قدمت عينه على فائه فى الجمع ثم اشتق منه فعل جديد .

٣ – لم يرد فى معجم أو نص أن جمعت كلمة الدأب أو الدأب على أدآب ، ولكن ورد فى كتب اللغة جمع بئر على أبآر وآبار ، وجمع رئم على أرآم وآرام .

٤ – لم يرد الدأب بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسنا أو قبيحا والأدب خلق كريم فى أول معانيه .

والدكتور طه حسين يحار فى الاهتداء إلى مصدر الكلمة ولا يرتضى رأياً من الآراء بعد أن مال إلى رأى الاستاذ نلينو ودان به ، فيفترض أنها من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الاصيل ضاعت . وهذا رأى يعتمد على هدم البناء بمعول من الخيال والفرض لا يبنى ولا يهدم.

والأستاذ مصطفى جواد يرى أنها مشتقة من الهذب وقلبت الهاء همزا كما فى هيا وأيا وهراق وأراق ، ويضعفه أن الكلمة لم تستعمل مرة على هذا الاصل لا فعلا ولا اسماً .

ويرى الأب أنستاس الكرملى أن الأب ، صفة الأديب الواردة فى اللغة اليونانية باللفظ والمعنى ، فمن معانى الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الريق .[1] لكن هذا الرأى محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .

ويذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن (أدب) معناها الإنسان فى لغة السومريين الذين عمروا جنوبى العراق فى فجر التاريخ ، ومما لا مساغ للشك

---

(١) المقتطف مارس سنة ١٩٣٣ ص ٣٢٢ مقال للأستاذ مصطفى جواد .

فيه أن قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضهم حوالى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، فغزتهم وأخضعتهم ، واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا نظن أن هذه الكلمة السومرية قد دخلت العربية بلفظها ومعناها ؟ ثم تحولت إلى آدم ، واستعملت كذلك فى اللغات السامية، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدمها وعدم اختلاطها ، ثم استعملت هذه الكلمة فى الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذى استكمل مزايا الإنسانية من حر الخلال وكرم الفعال ، وحسن السيرة، كما نقول اليوم فلان آدمى وفلان إنسان ، ثم قلبها الزمان على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . ومما يساعد هذا الفرض قول التبريزى فى شرح الحماسة : كان الأدب اسما لما يفعله الانسان فيتزين به فى الناس »(١)

ومع تقديرى للاستاذ وتحرزه فى عرض هذا الغرض أدفعه بأن المراد من الكلمة إذاً الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز بصفات، لا الخلق الكريم نفسه ولا الصفات المميزة لبعض الناس . وليس فى اللغة أثارة تؤيد هذا المعنى أو تشير إليه ، وحتى كلمة التبريزى نفسه صريحة فى أن الأدب ميزة وحلية يتزين بها الرجل فى الناس ، على أن استعمال هذه الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيد الاحتمال .

وبعد فهذه آراء تبحث عن أمومة للكلمة فى غير جنسها ، وأما فى اللغة العربية نفسها ، وبعضها ينصب شباكا لاصطياد جديد ، وأقوى منه ذلكم الرأى التليد الوطيد .

– ٢ –

وفى العصر الأموى ظل هذا المعنى الخلقى الصرف حياً شائعا ، ومنه قول سالم بن وابصة الاسدى :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفا عاقلا ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذراً

---

(١) فى أصول الادب ص ٨

وقول مزاحم العقيلي في وصف الابل :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل[١]

ومنه قول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : أدبهم برواية شعر الأعشى، فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره .

ولكن الكلمة تطورت إلى معنى آخر ، ذلكم هو الشعر والنثر ومايتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب، وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريسه لأبناء الخاصة وأولياء العهد طائفة ممتازة من الأساتذة سموا المؤدبين ، ومنه قول معاوية : « اجعلوا الشعر أكثر همكم ، وأكثر آدابكم ، فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم » وسمى الملمون بهذه الثقافة أدباء أيضا ، قال أبو العيزار كما ذكر الجاحظ أو عبيدة بن هلال اليشكرى كما ذكر المبرد فى مدح الخوارج :

أدباء إما جئتهم خطباء ضمناء كل كتيبة جرار[٢]

على أنه كانت فى العصر نفسه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب ، هى القرآن الكريم والحديث الشريف، وتلكم هى الثقافة الشرعية أو الدينية .

فمن أين اشتق هذا المعنى الجديد للأدب؟

جرى الباحثون على أن المعنى الجديد وليد القديم ؛ لأن المؤدبين كانوا يتوخون من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة ولكنى أرى أن المعنى الجديد إنما جاء من الأدْب وهو الأمر العجيب ، قال الأصمعى : جاء فلان بأمر أدب أى عجيب ، وأنشد :

سمعت من صلاصل الأشكال أدباً على لباتها الحوالى

أو من الأدْب وهو العجب والدهشة ، قال منظور بن حَبّة الاسدى :

بشمجى المشى عجول الوثب غلابة للناجيات الغلب

حتى أتى أزبيها بالأدب[٣]

(١) الاديب والمؤدب : البعير المذلل المقاد (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٠٩

(٣) لسان العرب مادة أدب ، الشمجى : الناقة السريعة . الازبى : السرعة والنشاط

فالأدب الأمر العجيب ، أو الدهشة والعجب ، والصلة بين الأدَب بمعناه الفنى وبين هذين الأصلين صلة وثيقة ، لأن الأدب عجيب يثير النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عجب من منظر أو حادث أو شعور ، ونتاج يدعو إلى عجب القراء والسامعين ، ويعزز رأيي هذا أن بعض الشعر الذى كان يدرس ويروى على أنه أدب — حافل بالمجون والغزل الفاحش والخمر كشعر طرفة وامرىء القيس والأعشى ، فاشتقاق المعنى من الادب بمعنى الأمر العجيب أو العجب والدهشة أكثر ملاءمة للادب ومسايرة له من اشتقاقه من الأدب بمعنى الخلق الكريم .

وإذاً فالأدْب بمعنى الدعاء للمأدبة أصـــل للأدَب بمعنى الخلق العظيم ، والأدْب بمعنى العجيب والعجب أصل لذلكم الفن الجميل الرفيع من شعر ونثر

— ٣ —

وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العباسى الأول أو فى القرن الثانى والثالث نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها وأسمائها . فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب فى الادب بهذا المعنى مثل البيان والتبيين للجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ والكامل للمبرد المتوفى سنة [illegible] هـ والشعر والشعراء وعيون الاخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وطبقات الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ وأنتم تجدون مثلا فى كتاب الكامل شعرا ولغة وصرفا ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لانهم فهموا الادب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة .

ولم يكن الأدب ثقافة المسلمين الوحيدة فى ذلكم الحين ، فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ، واتسعت دائرتها عما كانت عليه فى القرن الاول ، فتفرعت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته ورسمه ، وإلى الحديث الشريف وعلوم

الحديث ، وإلى الفقه وأصوله ، والكلام ومذاهبه ، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك . . .

ولكن الادب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة ، فهذه فلسفية وتلك دينية . على أن الدلالة الخلقية ما فتئت حية تدور على الالسنة وأسلات الاقلام ، فان الجاحظ مثلا فى البيان والتبيين عقد فصولا فى الادب منها (كلام فى الادب) ذكر به عدة حكم ووصايا مما يهذب الاخلاق[١] ، وذكر لابن هرمة أبياتاً فى الرثاء منها بيت يمدح المرثى بالكرم وحسن أخلاق الخدم فى لقاء الضيوف :

هش إذا نزل الوفود ببابه سهل الحجاب مؤدب الخدام[٢]

وابن المقفع سمى كتابين له فى الاخلاق (الادب الكبير) و (الادب الصغير) وقد توفى سنة ١٤٢ هـ .

— ٤ —

وقد كان النقد يتدرج فى نضجه وارتقائه منذ القرن الثالث ، ونهض علما مستقلا متميزاً من الأدب فى القرن الرابع ، وسمى بلاغة حينا وبيانا حينا وبديعا حينا ، وكان رواة الأدب قد قللوا من الاستطراد اللغوى والنحوى فيما يروون ويدونون ، فضاقت دائرة الأدب التى كانت رحبة شاملة فى القرنين السابقين ، وانحسر لفظ الأدباء عن العلماء ، واستقل به الكتاب والشعراء ، لأن العلوم استقلت فاختص بكل علم رجاله ، حتى قالوا : ختم تاريخ الأدباء بثعلب والمبرد ، وكانت وفاة المبرد ٢٥٨ هـ وثعلب ٩ هـ وثم يقصدون بالأدباء هنا الملمين بالثقافة العربية جملة ، وصار الأدب يطلق على الجيد من الشعر والنثر وما يرتبط بهما من شرح ونقد ، وهذا هو معناه فى كل اللغات الآن .

— ٥ —

على أن هذه الكلمة دلت فى العصر العباسى أحيانا على معنى أوسع من

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦٦ . (٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٥٠ .

ذلكم كله ، دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعملية ، فالفلسفة أدب ، والصيد والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب ، والأديب هو المثقف المستنير اللبق، قال الوزير الحسن بن سهل ، المتوفى ٢٣٦ ﻫ « الآداب عشرة ، ثلاثة شهر جانية ، وثلاثة أنو شروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسه والفروسية،وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس »(١)

ومن النصوص الدالة على أن الأدب هو المهارة، وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ماأنشده ابن أبي كريمة :

ألا زعمت عفراء بالشام أنني غلام جوار لا غلام حروب
وإني لأهدى بالأوانس كالدمى وإني بأطراف القنا للعوب
وإني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب(٢)

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ قوله : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها ، فأدخل في الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية ، متأثرا بأرسطو ، فقد سمى العلوم الرياضية الأدب ، في تقسيمه للعلوم المأثور عنه(٣).

وأدخل إخوان الصفا في عداد العلوم الرياضية التي سميت الأدب أحيانا: السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة(٤).

---

(١) زهر الاداب جـ١ ص ١٤٢
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٩
(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٥٣٣
(٤) الرسالة السابعة جـ ١

وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل الأغانى من أرقى فنون الأدب ،وفيها وضع عبيد الله بن طاهر من ندماء الخليفة المعتضد بالله المتوفى ٢٨٩ ﻫ كتابه (الآداب الرفيعة) ، لذلك قال ابن خلدون « وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء الأدب لأنه تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به ، حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه » .

وقال « يجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، يفهم به مايقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ... فالأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »[1]

وقد جمع أبو القاسم إسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع ضروب الأدب فى قوله :

إن شئت تعلم فى الآداب منزلتى ... وأننى قد عدانى العز والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهدلى ... والعود والنرد والشطرنج والقلم[2]

أحمد محمد الحوفى

(١) المقدمة ص ٤٨٨ — ٤٨٩

(٢) الأوهاق : الحبال القوية ترمى فى أنشوطة لتؤخذ بها الدابة والانسان ، وغرض الشاعر حرف الكدية التى ينال بها .

احتفـــــال

جماعة الشعر بكلية دار العلوم

بذكرى المولد النبوى سنة ١٣٦٧

مع ذكر القصائد بترتيب حروف أصحابها

لمن النور

للشاعر أحمد هيكل

لمن النـــور يغمر الأرجاء   ويحيل الظلام فيهـــا ضياء ؟
أهو البدر قـــد تدفق نبعا   من لجـــين يفضض الصحراء ؟
أهو الفجر قد تقـــدم جيشا   رفع النـــور فى يديه لواء ؟
أهو الصبح حائكا عبقريا   نسج الضوء للوجود رداء ؟
لا ، فهذا الضياء يسكب فى الأ   عـــين هديا ورحمة وشفاء
وجدته العيون أعـــذب رى   كورود ترشفت أنداء
إنه نور وجه خير وليد   هبط الأرض باسماً لألاء

* * *

مالنخل الصحراء يرقص كالغيد   ويبدى تخلعا وانثناء ؟
مالهـــذى الجبال أضحت قلوباً   فى ضلوع الصحراء تحى الرجاء ؟
مالتلك الغدران تضحك والماء   مسكوب من ثغرها صهباء ؟
مالهذى القفار صارت رياضاً   ثم أضحى هجيرها أفياء ؟
أتراه الربيع تنسج للأرض   يـــداه غلائلا خضراء ؟

لا ، فإن الربيع يمكث حينا ثم يمسى هواجرا أو شتاء
والربيع خلده الله ليمحو عن الوجود الشقاء
ليس هذا سوى ربيع وليد جعل الأرض جنة فيحاء

* * *

يايتيما كالدر سدت على اليتم ملايين أدركوا الآباء
ياعليا وماخططت حروفاً أنت أعجزت فى الورى العلماء
ياوحيداً له نفوس البرايا يتمنين أن يكن إماء
يا فقيراً وبين جنبيك كنز ترب نعليك يشترى الأغنياء
قم تراهم عموا وصحوا قلوبا ودعاء الفقير شق السماء
ولقد كنت من قليلك تسخو فإذا جدبها يصير رخاء
كم قسمت الأموال تمسك بعضا ثم تعطى جميعها الفقراء
فتآخى الجميع وانبسط العدل ظلالا وريفة سجواء
إن حق الافراد فى أى أرض أن يعيشوا فى أرضهم أحياء

* * *

يارسولا دعا القلوب إلى الحب وأنسى الخصام والبغضاء
أنت شيدت بالتآلف للعرب صروحا تصافح الجوزاء
فى ظلال الإسلام أقدس روح عطر الكون ألفة وإخاء
ثم دار الزمان وافترق القوم دروبا وفرقوا أهواء
فمشى النسر كالزواحف فى الأرض يجر العظام والأشلاء
وغدا الجميع كالقطيع شتيتا راح ناب الذئاب فيه وجاء
ثم قالوا : مذلة واحتلال وأرادوا تحرراً وجلاء
ومن الحق أن نكون شتيتاً ثم نبغى تقدما وارتقاء
ليس ينجى سوى تآلف قومى ليردوا تلك النقاض بناء
ثم نمضى إلى الأعادى أسوداً نعشق الموت لانهاب الفناء
فمن الخزى أن نعيش على القيد ونحيا فى أرضنا غرباء

قبس من الذكرى

للشاعر عبد البصير العنبسي

قبس من الذكرى الحبيبة يشرق — ضاءت به الدنيا وغنى المشرق
فى كل قطر من سناه بشائر — لما تزل أضواؤها تترقرق
هامت بها مصر وتاه بحبهـا — بغداد والبلد الحرام وجلق
تلك البلاد الطاهرات منائر — علم الحضارة فوقها يتألق
ألقى لها التاريخ فضل عناية — ومضى على أعقابهـا يتسلق
حتى أناف على الذرى ومضى إلى — لوح الخلود يخط فيه فيصدق

ياحاديا تلك المواكب مرسلا — راياتها فوق البرية تخفق
مهلا فما هـذى المشاهد زانها — نور يشع على الجواء وررنق
أنى رأيت نجومها مقرونة — بالسعد ماتنأى ولا تتفرق
نصر هنالك قد أظل زمانه — وبدت معالمه هنا تتحقق
ذا فيلق فى النيل يزخر موجه — يتلوه من غيل العروبة فيلق

ماذا التفاؤل يازمان وأننى — لأغص بالدمع الهتون وأشرق
فى كل صدر لوعة مكبوتة — كادت بها تلك الصدور تمزق
قالوا فلسطين يراد بأرضها — شر على أهل العروبة مطبق
أمر قضاه الإنكليز مدبر — ودعا إليه الحانقون النزق
من كل مسعور يدير لهـاته — طمع تكاد له العوالم تفرق
مالى وللجدل العقيم يديره — حول الموائد عابث متشرق
إنا وما نرضى الحياة أذلة — لنصد كيد الطامعين ونمحق

ياذا الشباب تحية أنا ماأرى مثل الشبيبة والحوادث تحدق
جيش العروبة ماتزال صفوفه ترنو إلى زمر الشباب وتطرق
أنا لاأقول إلى الجهاد فانما أنتم إذا دعت البطولة سبق
لبيك ياجيش الخلاص فاننا لك طعمة إن كنت ناراً تحرق
هاتوا السلاح فاننى متمنطق من ذا يرى خطراً ولا يتمنطق
سنثيرها شعواء يبرق هولهـا ونخوضها مثل الصواعق تبرق

مالى وللغرب الحقود تقوده نزواته نحو الضلال فيغرق
فى أندنيسيا للطغام مجازر تركت دماء المسلمين تصفق
والهند يصلى النار باكستانه نار بأيدى الانكليز تحرق
والمغرب الدامى هناك مكبل مازال يثقله الحديد ويرهق
حقد طواه الغرب فى أحشائه من عهد قرطبة يجد ويخلق
من لى إذا احتدم القتال بطارق فيعود حلم مايزور فيطرق
يا أرض أندلس عليك تحية هل فى رجالك مدنف متشوق؟
وهل المآذن ماتزال تعهدها تختال فى كبد السماء وتسمق؟
كفكف دموع الشرق فهى ثمينة وذر الدماء عوارما تتدفق
وصه فما يبنى الممالك منطق ودع المدافع كالصواعق تنطق
الغرب أحمق مايصيخ لحجة إلا إذا نطق الحـديد الأحمق

فى مجلس الأمن الخئون مشاكل لما نزل بحباله تتعلق
قالوا قضاة قلت إن وربما نزل القضاء على الضعيف فيسحق
من علم الذئب الخئون أمانة حتى يحكمه القطيع الأخرق
خلوا الشعوب وماتريد فانما حق المصير لها مباح مطلق
أهـل الجنوب تحية ومودة النيل عهد والعروبة موثق
هل مصر والسودان إلا وحدة يجرى بها النيل الأتى ويدفق
الجنس والدين الحنيف ظهيرها واليعربية والحجا والمنطق

أنا لا أرى السودان نهبة ناهب بيد الطغام المرجفين يمزق
لا تسمعن لعصبة مفتونة باتت بأطلال المطامع تنعق
هو من صميم النيل قلب نابض للوحدة الكبرى يهش ويخفق
سنظل نمنعه ونصدق وعده حتى يدين لنا الزمان فيصدق

عيد الميلاد النبوى

للشاعر محمد الهادى السيد

أى بشرى بها الزمان يبشر ؟ فكر الكون يوم ذاك وقدر
ما لهوج الرياح أصبحن أندى من رخاء على الجنان تخطر ؟
ما لنبت الأشواك فى ضلع الصـ ـحراء أزهى من الورود وأنضر ؟
وعلام الغناء قد وقعته سعفات النخيل سكرى تبختر ؟
وعليها ترنمت لهوات الـ ـطير نشوى كأنها بنت مزهر !
والرمال الرمال أرقصها اللـ ـحن سروراً كأنه لحن عبقر !
كل ما فى الوجود نشوان ما هـ ـذا؟ أرى الكون ضاحك الثغر أنور
ثم أنظره هناك فى طرف الصحـ ـراء تسرى إيوانه يتقطر !
أنا حيران !! لا تحر ، إنه مو لد « هادى الوجود » الله أكبر

تلك عين من القداسة فاضت ذاك سيل من الهدى يتحدر
شارك الكون فى الغناء قصيدى صوت داود هاته إن تيسر
وإذا كان يا قصيد بعيداً فليكن غيره ولا تتحير
إيه لحنا من النشيد جديداً إن لحن الأطيار لم يتغير
وتخشع فان هذا وليـد لثم الأرض منه كسرى وقيصر
ليس ملكا وإنما هو فرد قلب الكون فى سنين وأشهر

هو روح من السموات دبت في تجاليد الكون حتى أثمر !
فإذا السهل ضاحك يتغنى وإذا القفر أنهر تتفجر
هو نور ينير كل ظلام وكذا النور من صفاه ينور
وهو أصفى من الصفاء وأنقى وهو أسمى من السمو وأطهر
يا فقيراً وأنت أغنى غنى يا وحيداً ومن ملايين أكثر
هي دنيا لولا وجودك فيها لم يكن للحياة شأن يذكر

ما عهدنا القلاع تفتح إلا طمعاً في توسع أو تدمر
وفتحت الوجود براً وبحراً لا لشيء ترى سوى أن يعمر
أي جيش مظفر قدته في فتحك الأرض أيهذا المظفر ؟
باع مالا وأنفساً بجنان عرضها الأرض والسموات تبهر
وخسرنا النفوس والمال والجنـ ـة جمعاء ، يا لهذا المخسر
لا تظنوا نفوسنا حية يا قوم أين النفوس أين العسكر ؟؟
لو بنفس الحياة لم ترض مصرا ودم العرب في فلسطين يهدر

أيها المسلمون شرقا وغربا ما بنا عرق نابض لن نعذر
كانت الدنيا خلفنا أيها الركـ ـب عزيز على أن تتأخر
لا تهب موقفاً بربك واغضب إنما النصر - لو علمت - مقدر
ربنا الله ، وهي بعض حروف فتحت يابس الدنا والأخضر
يا سليل الأسود من خير غاب أيها الشبل كن اباك الغضنفر
إن ذكرى الرسول درس عظيم فافهم الدرس ثم هب لتثأر
وانصر الله في حياتك من لم ينصر الله ربه لن ينصر

ذكرى المجاهد الاول

للشاعر محمد هاشم عبد الدايم

ذكراك بين حوادث وخطوب أمل يبدد ظلمة المكروب
ذكرى المجاهد لم يحد عن رأيه خوف العدو وجمعه المرهوب
قد كان فرداً فى عزيمة جحفل وعدوه جيش بغير قلوب
فأذله وأعز شرعا محكما ما زال للأدواء خير طبيب
وإذا عزمت بلغت كل مؤمل وإذا خضعت حييت للتعذيب
عزم البناة السابقون فشيدوا مجداً أقيم على الدم المصبوب
يدعون بالحسنى فان لم ينثنى لهم العدو دعوا لخوض حروب

يا ماضى الاسلام قلبي هاجه شوق الحزين لعزه المسلوب
لو طاف ذكر «دمشق» بين خواطرى ذرفت عيونى بالدم المسكوب
« بغداد » أين مواكب النصر التى عزت « بهارون » وكل نجيب
يا قلب مالك كلما طالعتهم بالذكر تخفق بالهوى المشبوب
ما بال « أندلس » يفوح عبيرها فتزيد منه لوعتى ونحيبي
كانت حضارتها تضىء لعالم من كل معنى للحياة جديب
يا عزة الاسلام هل من عودة من بعد ذل للنفوس عصيب ؟

لا تدعوا الاسلام إن لم ترجعوا ما طاح من تاج له مغصوب
ما لى أراكم تنصرون عدوكم وتسارعون لحرب كل قريب
هى آفة الأحزاب تمزيق القوى فتهيب أوطان بغير مجيب
يتشاغلون بتافه من أمرهم وعدوهم يسعى بعقل أريب
كم من منازل مثلت يبكى لها أصحابها ويسر كل غريب

نادت « فلسطين » العزيزة فانبرت لندائها لهوات كل خطيب

طال اللسان وقصرت عزماتنا ليست « يهود » تهاب أى أديب
أمر الإله بأن نعد سلاحنا لا أن نعد لساننا لخطوب
أين التحمس ؟ أطفئت نيرانه وغدا رماداً ما ابتدا بلهيب
تسق العروبة فى « فلسطين » لظى ونلذ بالمأكول والمشروب
لا تحسبوا الدنيا تساق لنائم يرضى بعيش القـانع المغلوب
السيل يجزف ما تلين قناته ويصد عن صلب القناة مهيب
هذا امتحان العرب إما شمسهم تضجر وإما تنثنى لغروب
يا نفحة من عزم « احمد » جددى عزماتنا لتحفز ووثوب
قد حركت ذكرى النبي شعورنا والذكريات تهز كل حبيب
وبدت بشائر أيقظت آمالنا فلعلنا نحظى بخير نصيب

سموت بحبي

محمد محمد اسماعيل عبده

ملامك لا يغنى ونصحك لا يجدى فياعاذلى دعنى مقيما على عهدى
ودع جمرات الحب يحرقن مهجتى وخل حميم الشوق يهم على خدى
إذا القلب أمسى فى الضلوع بلاهوى فما الفرق بين القلب والحجر الصلد ؟

عذولى أن اللوم نار على الحشا ولكننى بالنار فى عيشة رغد
ترفق ولا تلحف فلست بمرتض بديلا بمن أهوى ولست بمرتد
أأرضى بديلا بالنبى وحبه أنيسى فى مهدى شفيعى فى لحدى؟

تنقل فى الأصلاب نورا سرت به يد الله من جد كريم إلى جد
تلفتت الأيام ترقب بعثه ألم تك تدرى أنه خاتم العقد ؟
أطل على الدنيا فلم يك مولداً ولكنه عيد الرجولة والمجد

سموت بحبى إذ عشقت محمداً ونزهت قلبى أن يحن إلى خود
هو المثل الأعلى فلو أنصف الذى يكيد لوالانى وكف عن الكيد
أيزعم أنى قد ضللت ؟ لئن يكن ضلالى ما يعنى فيارب لا تهد

أنا العاشق المضنى وكل متيم خبير بما يخفى المشوق وما يبدى
أنا الحر فى دنيا الكرامة والعلا وما أنا فى دنيا الغرام سوى عبد
سعيد بأحلامى شقى بعذلى وكم نالت الأشواك من قاطف الورد

بكيت عذابى فى الهوى ومذلتى ودنيا من الآلام حملتها وحدى
دهور بلا عقل رضينا قضاءها تحكمت الغزلان فى غابة الأسد
محمد أدرك أمة دال مجدها فأضحت يدا شلاء تلهو بها الأيدى

تراها من الأهوال حمقاء لا تعى وكيف يعى من بات يـرسف فى القيد؟
وما ذلها ضعف ولا هـدها بلى ولكن مخازى الغرب أوبئة تعدى
محمد عفنا الذل لا بد من وغى فأما إلى مـوت وأما إلى خـلد

محمـد ما ذكراك إلا صحيفـة تروح وتغـدو بالهـداية والرشـد
تعيد على الأيام لحنـاً من العـلا وتسكب فى التاريخ كأسا من الشهد
أقول إذا ما هبت الريح من منى وأومض برق من تهامة أو نجـد
متى يارسـول الله أحظى بلثمة لقبرك تشفى ما بقلبى من وجد؟
رجوتك فارحم حرقتى وصبابتى وكن لى لدى الرحمن عونا على البعد
فلو أن طودا ذاق ما ذقت من جوى لذاب ، وهل قلبى أجل من الطود ؟

خواطـــر المولد

للشاعر محمد حليم حامد غالى

على كل ثغر من شغاف قلوبنا … حنين .. ونجوى للحبيب .. وللمنى
صحونا .. فكان الصبح سابل ظله … على الأرض محشود الركائب حولنا
ضياء .. وآمالا .. وعهدا مضوعا … بنفحته العصماء .. تمسح شجوننا
فبطحاء « مكة » من ضياه لآلىء … ترشفه وحيا .. وتلمس مجتنى
عروس الهدى لما خطرت تأرقت … ضلالات شرك .. والمأمل لى دنا
ولدت حبيبا . كالنسائم رجعت … هواك على طهر الوفاء قلوبنا
فنجواك ملء القلب والروح والنهى … وذكراك ذكرى المجد تبعث وعينا
سألناك رشداً .. لا نبيت تؤرقا … حيارى .. ولا حربا تناهش ظلنا
هنا حول أبيات العدالة مأتم … مقيم .. على ميت هو الحق بيننا
تناهبه أيدى الطغاة .. فتارة … جهاراً وأخرى على سريهتك سرنا
وبين قلوب العارفين .. بوارح … تنوح .. وشجو إذ تقطع وصلنا
سلام على طهر القداسة . ضيعت … مقاليده .. فأزور يبكى ضياعنا
بنى النيل . من منا تكحل جفنه … بنور الحياة الصفو أو عرف الهنا
نعيش . غريبا . يصطفى من غريمه … معانى شجواه . وسر قيودنا
عدمنا شبابا . لا يرى الموت بغية … إذا لم يكن للمكرمات . حصوننا
وبؤنا بأخفاف الخسار إذا انطوت … بنا عن سماوات المعالى . نفوسنا
إذا كان صهل الخيل فى كل ساحة … أمام لظى الأغيار والقذف قدوتى

ودالت مع الأيام حرب. فني دمى لظى ترميه عصفا عليهم جنوبنا
«فلسطين» أرض أهلها النجب اخوتى وأطياف نفس جمعتهم ضلوعنا
أثرها عوانا لاترى لابن حرة براء. ولا تنأى الغداة جموعنا
ففينا لأهل الأرض ثأر تأرقت به شهب الأيام جز بعيدنا
فان يخضب الأفاق حر متيم إلى النصر - فاعلم - قد نمته أصولنا
سلام علينا يوم كنا ولم نزل وفاء. ولم نخفر لمن لايخوننا
بنى العرب أن عشنا. نعش لفدائكم وإن عشتمو أنتم. فانتم فداؤنا
كلانا على جمر الحياة. فان نكن نلاقى لكم يوما. فانتم به لنا

أطياف الذكرى فى محبة العروبة

للشاعر سعد دعيبس

أطلت على أفق تخضب بالدم ... تباشير فجر للعروبة مقـدم
وشع سناها فى صـوارم يعرب ... حمية بركان وإقـدام ضيغم
وهام صداها بالرماح فأنشدت ... أناشيـد للاحرار تزرى بأنغمى
أناشيد غناها الحـديد فأسمعت ... بنيرانها من كان « بالوقر » يحتمى
وكانوا إذا غنى لهم « قس » لم يعوا ... فها هو قيثـار الدم المتضرم
هوى لحنه فوق الذئاب مناثحا ... وبدل أفراح البغـاة بمـأتم
وقوض أحلاما تهادت بأعين ... أطلت على الدنيا بمنظار درهم !!؟؟
مساكين هاموا بالخيال وحلقوا ... بآفاق أوهـام وأجـواء نـوم
ألا أيها الذكرى أعيدى ملاحنا ... لقيثـارها مجـد العروبة ينتمى
على وقعها سار الحـداة فحلقوا ... على هامـة الأيام آفاق أنجم
مضوا وبيمناهم تعاليم مصحف ... وسيف بيسراهم لبـاغ ومجرم
وما فتحوا يوما لتوسيع رقعة ... وما جاهدوا يوما لـكسب ومغنم
ولـكنما سلوا السيوف وأغمدوا ... لفتح « قلوب » فى دجى الشرق ترتمى
إذا أن مظلوم تهادى أنينـــه ... صواعق من نار على كل مسلم
وإن سكبوا أنغامهم فى بلاقع ... تبسمت الصحراء بعـد تجهم
فدان لهم سلطان كسرى وقيصر ... وكان اسمهم أنشـودة المـترنم
وما حكموا شعبا بسيف ومدفع ... ولا سلبوا قوت الضعيف المحطم
ولـكن تهادى شرعهم من سمائهم ... وسادوا بدستور من الله محكم
أغثنا رسول الله من عالم بغى ... ينام على موت ويصحو على دم !!
شريعتـه سلب وتوزيع مغنم ... وإرهاق مغلوب بدين ومغرم
وها هى « ألمانيا » تنادى دموعها ... بوحشية حمراء للغـاب تنتمى
سنحمل ماضينا ينابيع رحمه ... منادين يا دنيـا هلمى وأقدمى
فأما إلى نصر وأما إلى دم ... ولن نرتضى عيش الذليل المكمم

الفهرس